تعامل النبيِّ ﷺ مع زوجاته

قد أمرنا الله بالاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ، والتأسي بهديه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومنْ هنا فعلى الجميع أن يعرفوا رسولَ الله ﷺ بحسب مواقعهم؛ ليتمكّنوا من التأسّي به ﷺ.

فلا يسعُ الزوجَ إلا أن يعرفَ الرسولَ الزّوجَ، ولا يسعُ الحاكمَ إلا أن يعرفَ الرسولَ العادلَ في حكمهِ، ولا يسعُ القائدَ إلا أن يعرفَ الرسولَ القائدَ القدوةَ.

وقد كانَ النبيُّ ﷺ قدوةً في فنِّ التعامل مع الزوجةِ، ونبراساً؛ لإرشادِ الناسِ إلى الرقيِّ بالتعامل مع الزوجةِ معاملةً حسنةً يظهرُ أثرها الإيجابيُّ في الحياةِ الزوجيةِ والاجتماعيةِ.

من ثمَّ سيكون الحديثُ في هذا الفصل بعون الله من عدة جوانب:

الجانبُ الأوّلُ: صورٌ من حياة النبيِّ ﷺ الزوجية.

الجانبُ الثّاني: تربية النبي ﷺ لنسائه؛ ليكنَّ قدوةً لنساءِ المؤمنين.

الجانبُ الثّالثُ: مشاكل في بيت النبوة وكيفية حل النبي ﷺ لها.

وإليك -أخي القاري- بيان ذلك فيما يلي:

الجانب الأول: صور من حياة النبيِّ ﷺ الزوجية:

فقد كان للنبيِّ ﷺ إحدى عشرةَ زوجةً، وهن: خديجةُ بنتُ خويلد، وعائشةُ بنت أبي بكرٍ، وحفصةُ بنت عمر، وسودةُ بنت زمعةَ العامرية، وزينبُ بنتُ جحشٍ الأسدية،

وزينبُ بنتُ خزيمةَ الهلالية، وأمُّ سلمةَ هند بنت أبي أمية المخزوميّة، وأمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وجويريّة بنت الحارث المصطلقية، وصفيّة بنت حيي النضيرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

وقد ماتَ عن تسعٍ منهنَّ، وماتتْ خديجةُ بنتُ خويلدٍ، وزينبُ بنتُ خزيمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قبله ﷺ.

وقد عاشَ رسولُ الله ﷺ مع زوجاته الطاهراتِ حياةً سعيدةً طيّبةً، تمثّلُ تطبيقاً عمليّاً دقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، والمعروفُ كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ فعلٍ وقولٍ وخلقٍ نبيلٍ.

والنبيُّ ﷺ كان خيرَ الناسِ في تعامله مع زوجاته، كيفَ لا وهو القائل: «**خيركمْ خيركمْ لأهلهِ، وأنا خيركمْ لأهلي**»[(١)]، فكانَ ﷺ حلوَ المعاشرةِ لزوجاته، حسنَ التعامل معهنَّ، وقد بدا ذلك واضحاً في سيرته ﷺ معهنَّ.

ولو اقتدى الناسُ بالنبيِّ ﷺ في تعامله مع زوجاته؛ لانحلّتْ كثيرٌ من المشكلاتِ الزوجيّة التي نسمعُ عنها اليومَ.

فإن المرءَ ليعجبُ من كثرةِ ما يرى ويسمعُ ويقرأ من المشكلاتِ الزوجيّةِ التي تعاني منها الأسرُ والبيوتُ، وتشير الإحصائيّاتُ إلى أن معدّلَ الطلاق في العالم الإسلامي وصل إلى حدٍّ مخيفٍ، وفي ازدياد مستمرٍّ؛ فقد أظهرتْ إحصائيّةٌ حديثةٌ لعام (١٤٣٠هـ) صادرةٌ من وزارةِ العدلِ بالسعوديةِ ارتفاعَ حالاتِ الطلاقِ مقارنةً مع حالات الزواجِ بنسبةِ (٢١٪)، وتصدّرتِ الرياضُ مناطقَ المملكةِ من حيثُ عدد الحالات[(٢)].

ومع هذهِ المشكلاتِ الزوجيةِ، وكثرةِ حالاتِ الطلاقِ نحتاجُ أن نستعرضَ كيفَ كانتِ الحياةُ في بيت النبوةِ، وكيفَ كانَ رسولُ الله ﷺ يعاملُ زوجاته، وكيفَ كانَ يصبرُ عليهنَّ، ويتغاضى عن بعضِ أخطائهنَّ؛ فإن لنا في رسولِ الله ﷺ أسوةً حسنةً.

---

(١) رواه الترمذي [٣٨٩٥] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [٣٣١٤].

(٢) جريدة الوطن أون لاين [٢٠-٣-٢٠١٢م].

كانَ ﷺ يحرصُ على مجالسةِ زوجاتهِ، ومؤانستهنَّ كلَّ يومٍ:

فعنِ ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «كانَ رسول الله ﷺ إذا صلّى الصّبحَ جلسَ في مصلّاهُ، وجلسَ النّاس حوله حتّى تطلع الشّمس، ثمَّ يدخل على نسائهِ امرأةً امرأةً، يسلّمُ عليهنَّ، ويدعو لهنَّ، فإذا كان يوم إحداهنَّ كان عندها»(١).

ففي كلِّ يومٍ مع أولِ النهارِ له مرورٌ على زوجة من زوجاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ للسلام عليها، والدعاءِ لها.

وفي آخر النهار يجالسها جلسةً يحادثها فيها، ويؤانسها، فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «كانَ رسولُ الله ﷺ إذا انصرفَ منَ العصرِ دخلَ على نسائهِ، فيدنو منْ إحداهنَّ»(٢).

قولها: «فيدنو منْ إحداهنَّ»، المراد به: التقبيلُ والمباشرةُ من غير جماع(٣).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الّذي كانَ يقع في أوّل النّهار سلام ودعاء محض، والّذي في آخره معهُ جلوسٌ، واستئناسٌ، ومحادثةٌ»(٤).

وقالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قلَّ يومٌ إلّا وهوَ يطوفُ علينا جميعاً، فيدنو منْ كلِّ امرأةٍ منْ غيرِ مسيسٍ، حتّى يبلغَ إلى الّتي هوَ يومها فيبيتَ عندها»(٥).

«وإنما كانَ يفعلُ ذلكَ تأنيساً لهنَّ، وتطييباً لقلوبهنَّ؛ حتى ينفصلَ عنهنَّ إلى التي هو في يومها، ويتركها طيّبةَ القلبِ»(٦).

فكان نساؤه لا يفقدنه، بل يرينه في كلِّ يومٍ، فأينَ هذا ممن يهجرُ زوجته، ويتركها الأيامَ والليالِيَ، بل الشهورَ!!

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٨٧٦٤]، وسكت عنه الحافظ.

(٢) رواه البخاري [٥٢١٦]، ومسلم [١٤٧٤].

(٣) عمدة القاري [٣٠/ ٩٢].

(٤) فتح الباري [٩/ ٣٧٩].

(٥) رواه أبو داود [٢١٣٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٨٥٢].

(٦) المفهم للقرطبي [١٣/ ٩٠].

ومن الناسِ من يجالسُ أصحابه كلَّ يومٍ، ويسهرُ معهم إلى وقتٍ متأخّرٍ، حتى إذا عادَ إلى البيتِ كانَ قد استفرغَ جميعَ طاقته، وقد نام أهله، فيلقي بنفسه على فراشه، وينامُ.

«والحديث: فيهِ دليلٌ على أنّهُ يجوزُ للرّجلِ الدّخولُ على منْ لمْ يكنْ في يومها منْ نسائهِ، والتّأنيس لها، واللّمس والتّقبيل.

وفيهِ بيانُ حسنِ خلقه ﷺ، وأنّهُ كانَ خيرَ النّاسِ لأهلهِ»[1].

وأما في الليل، فربما اجتمعنَ في بيتِ واحدةٍ منهنَّ، فيأتيهنَّ، ويحادثهن، ويؤنسهن، عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: «كانَ للنّبيِّ ﷺ تسعُ نسوةٍ، فكانَ إذا قسمَ بينهنَّ لا ينتهي إلى المرأةِ الأولى إلّا في تسعٍ [أي: بعد انقضاء التّسع]، فكنَّ يجتمعنَ كلَّ ليلةٍ في بيتِ الّتي يأتيها»[2].

ففيهِ: أنّهُ يستحبُّ للزّوجِ أنْ يأتي كلّ امرأة في بيتها، ولا يدعهنَّ إلى بيته[3].

وقد كان النبيُّ ﷺ مع كثرة مشاغله، وعظم أعبائه، يسهر مع زوجاته ويؤنسهنَّ، ويستمع منهن لطرائف الأخبار.

فقد حدّثت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله ﷺ بحديثِ أمِّ زرع، وهو: أن إحدى عشرةَ امرأةً تعاهدنَ، وتعاقدنَ أن لا يكتمنَ من أخبارِ أزواجهنَّ شيئاً، فوصفت كلُّ واحدةً زوجها، فكانتْ أحسنهنَّ وصفاً لزوجها وأكثرهن تعداداً لنعمه عليها زوجة أبي زرعٍ.

قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال لي رسول الله ﷺ: «**كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمِّ زرعٍ**»[4].

فلا بدَّ للزوجِ من أن يخصّصَ وقتاً للجلوسِ مع زوجته لسماعِ حديثها ومؤانستها. وتشتكي معظمُ الزوجاتِ اليومَ من أزواجهنّ؛ لأن الواحد منهم في العملِ طوالَ النهارِ، وعندما يعودُ في الليل يجلسُ أمامَ التلفازِ حتى نصف الليلِ، وهي تنتظره، ثم يأوي بعد ذلك إلى فراشه متعباً، فينامُ كالجيفةِ، وربما نام والريموت في يده! ولا يبالي بزوجته المسكينةِ.

---

(١) عون المعبود [٦/ ١٢٢].

(٢) رواه مسلم [١٤٦٢].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١٠/ ٤٧].

(٤) رواه البخاري [٥١٨٩]، ومسلم [٢٤٤٨].

وقد تجدُ بعضاً من رجال الأعمالِ جالساً بين أوراقه حتى في البيت، فيرجعُ من مقرِّ عمله إلى بيته، فيكونُ الدوام الثاني له في البيتِ، وأهله في انتظاره!

ومعَ وسائلِ الاتصالِ الحديثةِ يستطيعُ المرءُ أن يبقى على اتصالٍ مع زوجته دائما، من خلالِ الرسائلِ والاتصالاتِ، فالاتصالُ؛ للاطمئنانِ على الزوجةِ قد لا يكلّفك أكثرَ من دقيقةٍ واحدةٍ، ولكنه يعني عند الزوجةِ الكثيرَ، والكثيرَ.

وكانَ ﷺ يعطي نساءهُ حقّهنَّ منَ المعاشرةِ:

عن أنسِ بنَ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله ﷺ كانَ يطوفُ على نسائهِ في اللّيلةِ الواحدةِ، ولهُ يومئذٍ تسعُ نسوةٍ، قالَ قتادة رحمه الله: قلتُ لأنسٍ رضي الله عنه: أوكانَ يطيقهُ؟ قالَ: «كنّا نتحدّثُ أنّهُ أعطيَ قوّةَ ثلاثينَ»[(١)].

قال ابن حجر رحمه الله: «وكانَ معَ كونه أخشى النّاس لله وأعلمهمْ بهِ يكثر التّزويج لمصلحةِ تبليغ الأحكام الّتي لا يطّلع عليها الرّجال، ولإظهارِ المعجزة البالغة في خرقِ العادة؛ لكونهِ كانَ لا يجد ما يشبع بهِ منَ القوت غالباً، وإنْ وجدَ كانَ يؤثر بأكثرهِ، ويصومُ كثيراً ويواصل، ومعَ ذلكَ فكانَ يطوف على نسائهِ في اللّيلة الواحدة، ولا يطاق ذلكَ إلّا معَ قوّة البدن... والعربُ كانتْ تمدح بكثرةِ النّكاح؛ لدلالتهِ على الرّجوليّة... ولمْ تشغلهُ كثرتهنَّ عنْ عبادة»[(٢)].

ولم تكن تمنعه العبادةُ ﷺ من مؤانسةِ زوجته، ومسامرتها، ومحادثتها، فعنْ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ إذا صلّى، فإنْ كنتُ مستيقظةً حدّثني، وإلّا اضطجعَ حتّى يؤذَنَ بالصّلاةِ[(٣)].

وحتى في السفر كان يماشي زوجته ويحادثها، عنْ عائشةَ رضي الله عنها: «أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ إذا خرجَ أقرعَ بينَ نسائهِ، فطارتِ القرعةُ لعائشةَ وحفصةَ، وكانَ النّبيُّ ﷺ إذا كانَ باللّيلِ سارَ معَ عائشةَ يتحدّثُ...»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري [٢٦٨]، واللفظ له، ومسلم [٣٠٩].

(٢) فتح الباري [٩/ ١١٥].

(٣) رواه البخاري [١١٦١].

(٤) رواه البخاري [٥٢١١]، ومسلم [٢٤٤٥].

ولم يـتركِ النبـيُّ ﷺ هـذا الهدي مع نسـائه حتى في ليلة بنائـه بزوجة جديـدة، عنْ أنسِ بـنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـالَ: «بنيَ على النّبيِّ ﷺ بزينبَ بنتِ جحشٍ، بخبزٍ ولحمٍ، فأرسـلتُ على الطّعامِ داعياً، فيجيءُ قومٌ، فيأكلونَ ويخرجونَ، ثمَّ يجيءُ قومٌ، فيأكلونَ ويخرجونَ، فدعوتُ حتّـى ما أجدُ أحداً أدعو، فقلتُ: يا نبيَّ الله، مـا أجدُ أحداً أدعوهُ، قالَ: ارفعوا طعامكمْ... فخرجَ النّبيُّ ﷺ، فانطلقَ إلى حجرةِ عائشـةَ، فقالَ: «**السّـلامُ عليكمْ أهلَ البيتِ ورحمةُ الله**»، فقالتْ: وعليكَ السّلامُ ورحمةُ الله، كيفَ وجدتَ أهلكَ، باركَ اللهُ لكَ.

فتقرّى حجرَ نسائهِ كلّهنَّ، يقولُ لهنَّ كما يقولُ لعائشةَ، ويقلنَ لهُ كما قالتْ عائشةُ»[(١)].

قوله: «تقرّى»، أيْ: تتبّعَ الحجرات واحدة واحدة[(٢)].

«فدورانـه على حجرِ نسـائه تفقّدٌ لأحوالهـنَّ، وجبرٌ لقلوبهنَّ، واسـتدعاءٌ لما عندهنَّ من أحوالِ قلوبهن؛ لأجل تزويجه؛ ولذلك اسـتلطفنهُ بقولهنَّ له: كيف وجدتَ أهلك يا رسول الله؟!

وصـدورُ مثلِ هـذا الكلامِ عنهنَّ في حالِ ابتداءِ اختصاصِ الـضّرّةِ الداخلةِ به؛ يدلُّ على قـوةِ عقولهنَّ، وصبرهنَّ، وحسـن معاشرتهنَّ، وإلاَّ فهذا موضعُ الطيـشِ، والخفّةِ للضرائرِ، لكنّهنَّ طيّباتُ لطيّبٍ»[(٣)].

وفي روايـة: فجعـلَ يمـرُّ على نسـائهِ فيسـلّمُ عـلى كلِّ واحدةٍ منهـنَّ: «**سـلامٌ عليكمْ، كيـفَ أنتـمْ يا أهلَ البيتِ**»، فيقولونَ: بخيرٍ يا رسـولَ الله، كيفَ وجـدتَ أهلكَ؟ فيقولُ: «**بخيرٍ...**»[(٤)].

قال النووي: «في هذا أنّهُ يسـتحبُّ للإنسـانِ إذا أتى منزله أنْ يسـلّمَ عـلى امرأته وأهله، وهذا ممّا يتكبّرُ عنهُ كثيرٌ منَ الجاهلينَ المترفّعينَ.

---

(١) رواه البخاري [٤٧٩٢]، ومسلم [١٤٢٨].

(٢) فتح الباري [٨/ ٥٣٠].

(٣) المفهم [١٣/ ١٥] للقرطبي.

(٤) رواه مسلم [١٤٢٨].

ومنهـا: سـؤال الرّجل أهلهُ عنْ حالهـمْ، فربّما كانتْ في نفس المرأة حاجةٌ، فتسـتحيي أنْ تبتدئ بها، فإذا سألها؛ انبسطتْ لذكرِ حاجتها»[١].

وكانَ ﷺ وفيّاً لزوجتهِ، يحفظُ لها حقّها، ولا ينسى لها سابقَ عهدها:

فقـد أثنى ﷺ على خديجةَ في حياتهـا، وبعد موتها ما لم يثنِ على غيرها، وكان يحرص على بيانِ فضلها، ومكانتها في قلبه حتى بعدَ وفاتها.

عنْ عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «ما غرتُ على أحدٍ منْ نسـاءِ النّبيِّ ﷺ ما غرتُ على خديجةَ، وما رأيتها، ولكنْ كانَ النّبيُّ ﷺ يكثرُ ذكرها، وربّما ذبحَ الشّاةَ ثمَّ يقطّعها أعضاءً، ثمَّ يبعثها في صدائـقِ خديجـةَ، فربّما قلتُ لـهُ: كأنّهُ لمْ يكـنْ في الدّنيا امـرأةٌ إلّا خديجةُ!! فيقـولُ: «إنّها كانتْ، وكانتْ، وكانَ لي منها ولدٌ»[٢].

فلم يكفَّ صلواتُ الله وسلامهُ عليهِ عن ذكرها، والثناءِ عليها بانتهاءِ العلاقةِ الزوجيّةِ، بل اسـتمرَّ ذلك بعد وفاتهـا، وكان يقولُ: «**إنّها كانتْ وكانـتْ**» أيْ: كانتْ فاضلةً، وكانتْ عاقلةً، ونحوَ ذلكَ.

«**وكانَ لي منهـا ولـد**»، فجميـعُ أولاد النّبـيِّ ﷺ مـنْ خديجـة، إلّا إبراهيمَ فإنّـهُ كانَ منْ جاريته ماريةَ.

والمتّفق عليهِ منْ أولاده منها: القاسـمُ، وبناته الأربـعُ: زينبُ، ثمَّ رقيّةُ، ثمَّ أمُّ كلثومٍ، ثمَّ فاطمةُ، وعبدالله ولدَ بعد المبعثِ، فكانَ يقال لهُ الطّاهرُ والطّيّب[٣].

ولا يذكرها ﷺ إلا ويثني عليها، ويسـتغفر لها، عنْ عائشـةَ قالتْ: «كانَ رسـولُ الله ﷺ إذا ذكرَ خديجةَ، لمْ يكنْ يسأمُ منْ ثناءٍ عليها، والاستغفارِ لها»[٤].

وعنـد النظرِ في حالِ الناسِ اليومَ نجدُ العجـبَ العجابَ، تجدُ الرجلَ قد ماتت زوجته، فتزوّج بأخرى، ثم يجلس يمدح الأخرى، ويقبّحُ أفعالَ المتوفّاةِ، وأنها كانتْ، وكانتْ.

---

(١) شرح صحيح مسلم [٩/ ٢٢٥].

(٢) رواه البخاري [٣٨١٨]، ومسلم [٢٤٣٥].

(٣) فتح الباري [٧/ ١٣٧].

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير [١٦/ ٣١٩]، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد [٩/ ٣٦٠].

أو يقعُ فراقٌ بسببِ طلاقٍ، فيذمّها أينما جلسَ، وأنه كان صابراً عليها، وما طلّقها إلا بعد نفادِ صبره، فلا يذكرها أو يتذكّرها إلا وهو ذامّ لها.

كما أن بعضَ الناسِ لا يذكرُ امرأتهُ بخيرٍ أبداً، وإن كانَ لها فضلٌ عليهِ.

وكان ﷺ تنبسطُ أساريرُ وجهه إذا رأى، أو سمع ما يذكّره بزوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «استأذنتْ هالةُ بنتُ خويلدٍ أختُ خديجةَ على رسولِ الله ﷺ، فعرفَ استئذانَ خديجةَ[١]، فارتاعَ لذلكَ[٢]، فقالَ: «**اللهمَّ هالةَ**»[٣]، قالتْ: فغرتُ، فقلتُ: ما تذكرُ منْ عجوزٍ منْ عجائزِ قريشٍ، حمراءِ الشّدقينِ [أي: قدْ سقطتْ أسنانها منْ الكبر]، هلكتْ في الدّهرِ، قدْ أبدلكَ اللهُ خيراً منها، فتمعّرَ وجههُ [أي: تغيّر] تمعّراً ما كنتُ أراهُ إلّا عندَ نزولِ الوحيِ، أوْ عندَ المخيلةِ[٤]، فقالَ: «**ما أبدلني اللهُ عَزَّوَجَلَّ خيراً منها، قدْ آمنتْ بي إذْ كفرَ بي النّاسُ، وصدّقتني إذْ كذّبني النّاسُ، وواستني بمالها إذْ حرمني النّاسُ، ورزقني اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولدها إذْ حرمني أولادَ النّساءِ**»، فقالت عائشة: والّذي بعثك بالحقِّ لا أذكرها بعد هذا إلّا بخيرٍ»[٥].

«وفي الحديث أنَّ منْ أحبَّ شيئاً أحبَّ محبوباته، وما يشبهُ، وما يتعلّق بهِ»[٦].

«وهذا منْ أعجبِ شيءٍ أنْ تغارَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا منِ امرأةٍ توفّيتْ قبلَ تزوّجِ النّبيِّ ﷺ بها»[٧].

وممّا كافأَ النّبيُّ ﷺ بهِ خديجة في الدّنيا: أنّهُ لمْ يتزوّج في حياتها غيرها فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «لمْ يتزوّجِ النّبيُّ ﷺ على خديجةَ حتّى ماتتْ»[٨].

---

(١) لشبهِ صوتها بصوتِ أختها فتذكّرَ خديجة بذلكَ.

(٢) أيْ: هشَّ لمجيئها، واهتزَّ لذلكَ سروراً.

(٣) أي: اللهم اجعلها هالة.

(٤) السحابة التي يظنُّ أن بها مطراً.

(٥) رواه أحمد [٢٤٣٤٣]، والطبراني في المعجم الكبير [٢٣ / ١٤]، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٦) فتح الباري [٧/ ١٤٠].

(٧) سير أعلام النبلاء [٢/ ١١٢].

(٨) رواه مسلم [٢٤٣٦].

«وهذا ممّا لا اختلاف فيهِ بين أهل العلم بالأخبارِ.

وفيهِ دليلٌ على عظمِ قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها؛ لأنّها أغنتهُ عنْ غيرها، واختصّتْ بهِ بقدرِ ما اشتركَ فيهِ غيرها مرّتينِ؛ لأنّهُ ﷺ عاشَ بعد أنْ تزوّجها ثمانيةً وثلاثينَ عاماً، انفردتْ خديجة منها بخمسةٍ وعشرينَ عاماً، وهيَ نحوُ الثّلثينِ منَ المجموع.

ومعَ طول المدّةِ فصانَ قلبها فيها منَ الغيرة، ومنْ نكدِ الضّرائر...، وهيَ فضيلة لمْ يشاركها فيها غيرها»[1].

ومن حسن عهده ﷺ معها أنه كان يصل صديقاتها بعد وفاتها، فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «كانَ النّبيُّ ﷺ يكثرُ ذكرها، وربّما ذبحَ الشّاةَ ثمَّ يقطّعها أعضاءً، ثمَّ يبعثها في صدائقِ خديجةَ»[2]، وفي رواية: «وإنْ كانَ ليذبحُ الشّاةَ، فيهدي في خلائلها منها ما يسعهنَّ»[3].

وفي رواية: «وإنْ كانَ ليذبحُ الشّاةَ، فيتتبّعُ بها صدائقَ خديجةَ، فيهديها لهنَّ»[4].

«فيتتبّعُ»، أيْ: يتطلّبُ، «فإهداءُ النّبيِّ ﷺ اللّحمَ لأصدقاءِ خديجةَ وخلائلها، رعياً منهُ لذمامها، وحفظاً لعهدها»[5].

«وفي هذا كلّه دليل لحسنِ العهد، وحفظ الودِّ، ورعايةِ حرمةِ الصّاحب، والعشير في حياته ووفاته، وإكرام أهل ذلكَ الصّاحب»[6].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ النّبيُّ ﷺ إذا أتيَ بالشّيءِ يقولُ: «**اذهبوا بهِ إلى فلانةٍ؛ فإنّها كانتْ صديقةَ خديجةَ، اذهبوا بهِ إلى بيتِ فلانةٍ، فإنّها كانتْ تحبُّ خديجةَ**»[7].

---

(١) فتح الباري [٧/ ١٣٧].

(٢) رواه البخاري [٣٥٣٤]، ومسلم [٢٤٣٥].

(٣) صحيح البخاري [٣٨١٦].

(٤) رواه الترمذي [١٩٤٠].

(٥) تحفة الأحوذي [٦/ ١٣٤].

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم [١٥/ ٢٠٢].

(٧) رواه البخاريُّ في الأدب المفرد [٢٣٢]، وحسّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد [١٧٢].

ويخصُّ صواحبها أيضاً بمزيد فضل وإحسان، فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: جاءتْ عجوزٌ إلى النّبيِّ ﷺ، وهوَ عندي، فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «**منْ أنتِ؟**»، قالتْ: أنا جثّامةُ المزنيّةُ، فقالَ: «**بل أنتِ حسّانةُ المزنيّةُ كيفَ أنتمْ، كيفَ حالكمْ، كيفَ كنتمْ بعدنا؟**»، قالتْ: بخيرٍ بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله، فلمّا خرجتْ، قلت: يا رسولَ الله تقبلُ على هذهِ العجوزِ هذا الإقبالَ! فقالَ: «**يا عائشةُ، إنّها كانتْ تأتينا زمانَ خديجةَ، وإنَّ حسنَ العهدِ منْ الإيمانِ**»[(١)].

فائدةٌ: مع أن هذهِ المرأةَ عجوزٌ إلا أن النبيَّ ﷺ غيّر اسمها إلى اسمٍ أجملَ وألطفَ؛ لأن الجثّامةَ هو الإنسانُ البليدُ الكسلان الذي لا يميل إلى الحركة.

والحسّانةُ أشدُّ حسناً من الحسناء، وهو اسم جميل قلَّ من يتسمّى به من النساء في هذا الزمن[(٢)].

فحسنُ العهدِ والوفاءُ من أخلاقِ أهلِ الإيمانِ، وهذا الموقفُ من النبيِّ ﷺ فيه مقابلةٌ طيّبةٌ، وملاطفةٌ جميلةٌ، وتودّدٌ محمودٌ، ووفاءٌ نبيلٌ لزوجته خديجةَ التي طالما أيّدتهُ، وخفّفتْ عنهُ، وواستهُ.

وكثيرٌ من الأزواج اليومَ يتنكّرُ لزوجته التي كدحتْ معه بدايةَ عمره، ووضعتْ يدها بيده، وساعدتهُ في بناءِ بيته، وليس هذا من حسن العهد.

وكان ﷺ لا يجدُ غضاضةً في التصريح بحبّه لزوجته، وقد قال ﷺ عن خديجةَ: «**إنّي قدْ رزقتُ حبّها**»[(٣)].

«وفيهِ إشارة إلى أنَّ حبّها فضيلةٌ حصلتْ»[(٤)].

وحبّه ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أشهرُ من أن يذكرَ، فلم يحبَّ رسولُ الله ﷺ امرأةً حبّها، ولا تزوّجَ بكراً سواها.

---

(١) أخرجه الحاكمُ في المستدرك [١/ ١٧]، وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة [٢١٦].

(٢) وقد سمّى الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إحدى بناته بهذا الاسم اقتداءً بالنبي ﷺ. انظر: السلسلة الصحيحة[١/ ٢١٥].

(٣) رواه مسلم [٢٤٣٥] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [١٥/ ٢٠١].

وكان يظهر ذلك الحبَّ، ولا يخفيه، حتى إن عمرو بن العاص سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ النّاسِ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: «**عائشةُ**»، قلتُ: منَ الرّجالِ؟ قالَ: «**أبوها**»(١).

أمّا الآنَ فتجدُ من الرجالِ من يعاشرُ زوجتهُ السنين الطّوالَ، دونَ أن يصارحها بحبّه لها، وبعضهم يعدُّ ذلك من خوارمِ المروءةِ، وربما يستحيي بعضهم من ذلكَ...!

وكثيرٌ من الناسِ لا يعلمُ أن تصريحه بحبّه لزوجته من أفضلِ ما يساعدُ على تعزيزِ العلاقاتِ، واستمرارِ الحياةِ السعيدةِ، وزيادةِ الثقةِ بينهما.

فالزوجةُ تريدُ من زوجها أن يشعرها أنه يحبّها، ويصرّحُ لها بذلك، ويكثر منه.

وكم من امرأة وقعتْ في المنكرِ بسبب أنها وجدتْ من يتكلّمُ معها، ويقولُ لها كلاماً معسولاً، لم تجدهُ عند زوجها.

وكانَ ﷺ يقبّلُ زوجتهُ قبلَ خروجهِ منَ البيتِ:

عنْ عروةَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النّبيَّ ﷺ قبّلَ بعضَ نسائهِ، ثمَّ خرجَ إلى الصّلاةِ ولمْ يتوضّأْ، قلتُ: منْ هيَ إلّا أنتِ، فضحكتْ(٢).

بل حتى وهو صائمٌ كانَ يقبّلُ نساءهُ، عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «كانَ النّبيُّ ﷺ يقبّلُ ويباشرُ، وهوَ صائمٌ، وكانَ أملككمْ لإربهِ»(٣).

وكانَ ﷺ يشربُ منَ المكانِ الّذي تشربُ منهُ زوجتهُ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «كنتُ أشربُ وأنا حائضٌ، ثمَّ أناولهُ النّبيَّ ﷺ، فيضعُ فاهُ على موضعِ فيَّ فيشربُ، وأتعرّقُ العرقَ [وهو العظم إذا أخذ عنه معظم اللّحم] وأنا حائضٌ، ثمَّ أناولهُ النّبيَّ ﷺ، فيضعُ فاهُ على موضعِ فيَّ»(٤).

---

(١) رواه البخاري [٣٦٦٢]، ومسلم [٢٣٨٤].

(٢) رواه الترمذي [٧٩]، وأبو داود [١٧٨]، والنسائي [١٧٠]، وابن ماجة [٥٠٢]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٧٢].

(٣) أيْ: حاجته، والحديث رواه البخاري [١٩٢٧]، ومسلم [١١٠٦].

(٤) رواه مسلم [٣٠٠].

وفي لفظ: «كانَ رسولُ الله ﷺ يضعُ فاهُ على الموضعِ الّذي أشربُ منهُ، ويشربُ منْ فضلِ شرابي، وأنا حائضٌ»[١].

«وهذا من غاية موافقته لها حبّاً»[٢]، وكم يكون لهذا الفعل من أثرٍ طيّب على الزوجةِ؛ فالنبيُّ ﷺ يضعُ فمهُ مكانَ فمِ عائشةَ رضي الله تعالى عنها في المأكلِ أو المشربِ، يفعلُ ذلك ﷺ وهي حائضٌ؛ إظهاراً للمودّةِ والمحبةِ.

وكانَ ﷺ يتسوّكَ بالسّواكِ الّذي تسوّكتْ بهِ زوجتهُ:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إنَّ منْ نعمِ الله عليَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ توفّيَ في بيتي، وفي يومي، وأنَّ اللهَ جمعَ بينَ ريقي وريقهِ عندَ موتهِ، دخلَ عليَّ عبدُ الرّحمنِ وبيدهِ السّواكُ، وأنا مسندةٌ رسولَ الله ﷺ، فرأيتهُ ينظرُ إليهِ، وعرفتُ أنّهُ يحبُّ السّواكَ، فقلتُ: آخذهُ لكَ؟ فأشارَ برأسهِ: أنْ نعمْ، فتناولتهُ، فاشتدَّ عليهِ، وقلتُ: ألّينهُ لكَ؟ فأشارَ برأسهِ: أنْ نعمْ، فقضمتهُ، ثمَّ مضغتهُ، فأعطيتهُ رسولَ الله ﷺ، فاستنَّ بهِ [أي: استاك به] وهوَ مستندٌ إلى صدري»[٣].

«فقضمتهُ»، أيْ: مضغته، والقضم الأخذ بطرفِ الأسنان، أيْ: كسرته أوْ قطعته[٤].

فقد جمعَ الله بينَ ريقه وريقها في آخرِ يومٍ له من أيامِ الدنيا، وأولِ يومٍ من أيامِ الآخرة، فأيُّ فضلٍ عظيمٍ نالتهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟!

وربّما نامَ على فخذها:

فلمّا أخّرتْ عائشةُ الرّكبَ في إحدى السّفراتِ بحثاً عن عقدها الذي ضاعَ، وليس مع الناسِ ماءٌ، جاء أبو بكر يعاتبها، قالتْ: «عاتبني أبو بكرٍ، وجعلَ يطعنني بيدهِ في خاصرتي، فلا يمنعني منْ التّحرّكِ إلّا مكانُ رسولِ الله ﷺ، ورأسهُ على فخذي»[٥].

---

(١) رواه النسائي [٣٨٧].

(٢) مرقاة المفاتيح [٢/ ٤٨٧].

(٣) رواه البخاري [٤٤٣٨].

(٤) ينظر: النهاية [٤/ ١٢٤].

(٥) رواه البخاري [٤٦٠٧]، ومسلم [٥٥٠].

وقالتْ: «كانَ النّبيُّ ﷺ يتّكئُ في حجري وأنا حائضٌ، ثمَّ يقرأُ القرآنَ»(١).

وهذا من طيب عشرته ﷺ، وكريم خلقه.

وفيه: عدمُ الأنفةِ من الحائضِ، أو كراهتها خلافاً لليهودِ الذين لا يؤاكلونها، ولا يجالسونها إذا حاضتْ.

بل كانَ النّبيُّ يضطجعُ معها في لحافٍ واحدٍ وهيَ حائضٌ:

فعن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالتْ: «بينا أنا معَ النّبيِّ ﷺ مضطجعةً في خميصةٍ، إذْ حضتُ؛ فانسللتُ فأخذتُ ثيابَ حيضتي»(٢)، قالَ: «أنفستِ؟» [أي: أحضتِ]، قلتُ: نعم، فدعاني، فاضطجعتُ معهُ في الخميلةِ»(٣)، وفي لفظ: «فدعاني، فأدخلني معهُ في الخميلةِ». الخميلة: هيَ القطيفة، وكلّ ثوب لهُ خمل منْ أيِّ شيءٍ كانَ(٤).

ففيهِ: جوازُ النّومِ معَ الحائضِ، والاضطجاعِ معها في لحافٍ واحدٍ.

وأمّا قول الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالمرادُ: اعتزلوا وطأهنَّ(٥).

وعنْ ميمونةَ زوجَ النّبيِّ ﷺ قالتْ: «كانَ رسولُ الله ﷺ يضطجعُ معي وأنا حائضٌ، وبيني وبينهُ ثوبٌ»(٦).

وبعضُ الأزواجِ إذا حاضتْ زوجته؛ فارقها في المضجعِ وتركها، وهذا الفعلُ مخالفٌ لهديِ النبيِّ ﷺ، ومضرٌّ بحالِ الزوجةِ، فإن الزوجةَ حالَ الحيضِ تنتابها اضطراباتٌ نفسيّةٌ

(١) رواه البخاري [٣٦٧٢]، ومسلم [٢٦٧].

(٢) أيْ: ذهبت في خفية، ويحتمل ذهابها أنّها خافتْ وصول شيء منَ الدّم إليهِ ﷺ، أوْ تقذّرتْ نفسها. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم [٣/ ٢٠٧]

(٣) رواه البخاري [٢٩٨]، ومسلم [٢٩٦].

(٤) النهاية [٢/ ١٥٣].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم [٣/ ٢٠٧].

(٦) رواه مسلم [٢٩٥].

تعكّرُ عليها مزاجها، وتضعفُ نفسيّتها، فإذا انضافَ إلى ذلك مباعدةُ الزوجِ عن فراشها؛ ضاعفَ ذلك من سوءِ حالتها.

بل توفّيَ رسولُ الله ﷺ ورأسهُ على صدرِ زوجتهِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «توفّيَ النّبيُّ ﷺ في بيتي، وفي نوبتي، وبين سحري ونحري»[١]، وفي لفظ: «قبضهُ اللهُ بينَ سحري ونحري»[٢]. والسّحر: هوَ الصّدر والرئة، تريد أنه مات وهو مستند لصدرها، ما بين جوفها وعنقها[٣].

وكانَ يغتسلُ معَ زوجاتهِ منْ إناءٍ واحدٍ:

كما قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كنتُ أغتسلُ أنا ورسولُ الله ﷺ منْ إناءٍ واحدٍ بيني وبينهُ، يبادرني وأبادرهُ، حتّى يقولَ: «**دعي لي**»، وأقولُ أنا: «دعْ لي»[٤]. «يبادرني»، أي: يسبقني؛ لأخذِ الماءِ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النّبيَّ ﷺ وميمونةَ كانا يغتسلانِ منْ إناءٍ واحدٍ[٥].

وعنْ أمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كنتُ أغتسلُ أنا والنّبيُّ ﷺ منْ إناءٍ واحدٍ منَ الجنابةِ»[٦].

وفي هذا بيان حسنِ تبعّلِ الرسولِ ﷺ.

وفي زمننا يأنفُ بعضُ الرجالِ أن ينامَ مع أهله في لحافٍ واحدٍ، أو يأكلَ معهم؛ بسببِ عاداتٍ ورثوها.

وكانَ يدلّلُ زوجتهُ فيرخّمُ اسمها:

فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ يوماً: «**يا عائشَ، هذا جبريلُ يقرئكِ السّلامَ**»، فقلتُ: وعليهِ السّلامُ ورحمةُ الله وبركاتهُ»[٧].

---

(١) رواه البخاري [٣١٠٠]، ومسلم [٤٤٧٤].

(٢) البخاري [١٣٨٩]، ومسلم [٢٤٤٣].

(٣) فتح الباري [١/ ١٣٠].

(٤) رواه البخاري [٢٥٠]، ومسلم [٣٢١]، والنسائي [٢٣٩]، واللفظ له.

(٥) رواه البخاري [٢٥٣]، ومسلم [٣٢٢].

(٦) رواه البخاري [٣٢٢]، ومسلم [٣٢٢].

(٧) رواه البخاري [٣٢١٧]، ومسلم [٢٤٤٧].

ويقول لها: يا حميراءُ[١]، فعن عائشة قالتْ: دخلَ الحبشةُ المسجد يلعبونَ، فقالَ لي النّبيُّ ﷺ: «**يا حميراءُ، أتحبّينَ أنْ تنظري إليهمْ؟**»، فقلت: نعمْ[٢].

قال القاضي عياض: «وهو تصغيرُ إشفاقٍ، ورحمةٍ، ومحبّةٍ»[٣].

وكان يكنيها بأم عبد الله، فعنْ عائشةَ، قالتْ: لـمّا ولدَ عبدالله بنُ الزّبيرِ أتيتُ بهِ النّبيَّ ﷺ، فتفلَ في فيهِ، فكانَ أوّلَ شيءٍ دخلَ جوفهُ، وقالَ: «**هوَ عبدالله، وأنتِ أمُّ عبدالله**»، فما زلتُ أكنّى بها، وما ولدتُ قطُّ[٤].

واليوم تجد بعض الرجال يسمّون زوجاتهم في هواتفهم الجوالةِ بأسماءٍ قبيحة، مثل: «نشبة»، «ورطة»، «بلية»، «شيطونة»، «غلطة عمري»، بينما يسمّي آخرون زوجاتهم في جوالاتهم بأسماءٍ جميلة حسنة، مثل: «الأهل»، «الغالية»، «شريكة العمر»، «القمر»، «أم فلان»، فسبحانَ من قسّمَ الأخلاقَ بينَ الأزواجِ كما قسّمَ الأرزاقَ.

ومنْ حسنِ معاشرتهِ ﷺ لهنَّ أنّهُ كان أحياناً يصحبهنَّ معهُ إلى الولائمِ:

عنْ أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: «أنَّ جاراً لرسولِ الله ﷺ فارسيّاً كانَ طيّبَ المرقِ، فصنعَ لرسولِ الله ﷺ ثمَّ جاءَ يدعوهُ، فقالَ: «**وهذهِ**» -لعائشةَ-، فقالَ: لا، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا**»، فعادَ يدعوهُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «وهذهِ»، قالَ: لا، قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا**»، ثمَّ عادَ يدعوهُ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**وهذهِ**»، فقالَ في الثّالثةِ: نعمْ، فقاما يتدافعانِ حتّى أتيا منزلهُ»[٥].

قال النووي: «كرهَ ﷺ الاختصاص بالطّعامِ دونها، وهذا منْ جميل المعاشرة، وحقوق المصاحبة، وآداب المجالسة المؤكّدة»[٦].

---

(١) الحميراء: تصغير الحمراء، وهي البيضاء المشربة بحمرة.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى [٨٩٥١]، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [٣٢٧٧]، وقال الحافظ: «إسنادهُ صحيحٌ، ولمْ أرَ في حديثٍ صحيحٍ ذكرَ الحميراءِ إلّا في هذا». فتح الباري [٢/ ٤٤٤].

(٣) مشارق الأنوار [١/ ٧٠٢].

(٤) رواه ابن حبان [٧١١٧]، وقال شعيب الأرنؤوط: «إسناده قوي».

(٥) رواه مسلم [٢٠٣٧].

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم [١٣/ ٢٠٩].

وإذا زارتهُ إحداهنَّ قامَ معها يشيّعها حتّى ولوْ كانَ معتكفاً:

فعنْ صفيّةَ بنتِ حييٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسولُ الله ﷺ معتكفاً، فأتيتهُ أزورهُ ليلاً، فحدّثتهُ، ثـمَّ قمتُ فانقلبتُ، فقامَ معي؛ ليقلبني، فمرَّ رجلانِ منَ الأنصارِ، فلمّا رأيا النّبيَّ ﷺ؛ أسرعا، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**على رسلكما إنّها صفيّةُ بنتُ حييٍّ**»، فقالا: سبحانَ الله يا رسولَ الله! قالَ: «**إنَّ الشّيطانَ يجري منَ الإنسانِ مجرى الدّمِ، وإنّي خشيتُ أنْ يقذفَ في قلوبكما سوءاً**»(١).

فتأمّل كيف قام معها من المعتكفِ؛ ليرجعها إلى البيت؛ ليحميها ويرعاها، مع أن المعتكف لا يخرج من المسجد إلا لضرورةٍ.

أبياتنا بالحبِّ نبنيها ... زوجاتنا قدْ نوّرتْ فيها
بالبرِّ والتّقوى نعمّرها ... وبسنّةِ المختارِ نحييها
هذا رسولُ الله قدوتنا ... تكفيكَ سنّتهُ وتكفيها
يبدي محبّتهُ لزوجتهِ ... وسواهُ يستعلي فيخفيها
بدعابةٍ منهُ يضاحكها ... وبأجملِ الأسما يناديها
قبلَ الخروجِ دنا يقبّلها ... ذكرى لها فمهُ على فيها
ما مدَّ يوماً كفّهُ بأذًى ... بل تلكَ نبعُ الخيرِ يجريها

لقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهراتِ حياةً سعيدةً طيبةً؛ إذ كانت تطبيقاً عمليّاً دقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

فلا عجبَ بعد ذلك أن نرى النبيَّ ﷺ يتحدّثُ عن حياته الزوجيةِ بقوله ﷺ: «**خيركمْ خيركمْ لأهلهِ، وأنا خيركمْ لأهلي**»(٢).

وقال ﷺ: «**أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنهمْ خلقاً، وخياركمْ خياركمْ لنسائهمْ خلقاً**»(٣).

ولم ينقل عنه ﷺ في يومٍ من الأيام أنه ضربَ امرأةً أو حقرها، فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(١) رواه البخاري [٢٠٣٨]، ومسلم [٢١٧٥].
(٢) رواه الترمذي [٣٨٩٥] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [٣٣١٤].
(٣) رواه الترمذي [١٠٨٢] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [١٢٣٠].

قالتْ: «ما ضربَ رسولُ الله ﷺ شيئاً قطُّ بيدِهِ، ولا امرأةً، ولا خادماً إلّا أنْ يجاهدَ في سبيلِ الله»(١).

وأينَ هذا من حالِ بعضِ الرجالِ اليومَ، تجدُ الرجلَ تمتدُّ يدهُ إلى زوجته، ويضربها إما على وجهها، أو رأسها، أو ظهرها، وربما استخدم عصاً، أو حذاءً، أو غيرَ ذلك؛ لأتفهِ الأسبابِ.

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لا تضربوا إماءَ الله**»، فجاءَ عمرُ رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ فقالَ: ذئرنَ النّساءُ على أزواجهنَّ [أي: نشزن عليهم واجترأنَ](٢)، فرخّصَ في ضربهنَّ، فأطافَ بآلِ رسولِ الله ﷺ نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجهنَّ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**لقدْ طافَ بآلِ محمّدٍ نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجهنَّ، ليسَ أولئكَ بخياركمْ**»(٣).

«أي: أن الرجالَ الذين يضربون نساءهم ليسوا بخياركم، بل خياركم لا يضربون نساءهم ويتحمّلونهنَّ»(٤).

ولذا قالت العرب: «لا يكرمهنَّ إلا كريمٌ، ولا يهينهنَّ إلا لئيمٌ، يغلبنَ الكرامَ، ويغلبهنَّ اللئام».

وقد أوصى ﷺ بالرفق بالنساء، فقال: «**استوصوا بالنّساءِ خيراً، فإنّهنَّ خلقنَ منْ ضلعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضّلعِ أعلاهُ، فإنْ ذهبتَ تقيمهُ كسرتهُ، وإنْ تركتهُ لمْ يزل أعوجَ، فاستوصوا بالنّساءِ خيراً**»(٥).

«في هذا الحديث: الحثُّ على الرّفق بالنّساءِ واحتمالهنَّ، وملاطفةُ النّساءِ والإحسانُ إليهنَّ، والصّبرُ على عوج أخلاقهنَّ، واحتمالهن»(٦).

---

(١) رواه مسلم [٢٣٢٨].

(٢) النهاية [٢/ ٣٧٥].

(٣) رواه أبو داود [٢١٤٦]، وابن ماجة [١٩٨٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٨٦٣].

(٤) عون المعبود [٦/ ١٣٠] بتصرف.

(٥) رواه البخاري [٣٣٣١]، ومسلم [١٤٦٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم [١٠/ ٥٧] بتصرف.

وقال ﷺ: «**إنَّ المرأةَ خلقتْ منْ ضلعٍ، وإنّكَ إنْ تردْ إقامةَ الضّلعِ تكسرها، فدارها تعشْ بها**»(١).

فمن الواجب على الرجل أن يصبر عليها، ويتحمل ما يصدر منها.

وما زال النبي ﷺ يكرر هذه الوصية كلما حانت الفرصة.

ففي خطبةِ حجةِ الوداعِ أفرد لها جانباً من خطبته العظيمةِ حيثُ قال ﷺ: «**ألا واستوصوا بالنّساءِ خيراً، فإنّما هنَّ عوانٌ عندكمْ** [أي: أسيرات]، **ليسَ تملكونَ منهنَّ شيئاً غيرَ ذلكَ...**»(٢).

وإنما كان النبيُّ ﷺ يكرّرُ وصيته بالنساءِ؛ لما يعلمه من حالهنَّ التي قد لا يقدرُ على تحمّلها بعضُ الرجال الذين لا يملكون أنفسهم عند الغضبِ؛ فيحمله عوجُ المرأةِ على أن يفارقها؛ فيتفرّقُ شمله، وتتشتّتُ أسرته وأهله.

ولذا أرشدَ النبيُّ ﷺ الأزواجَ في حديثٍ آخرَ إلى ما فيه صلاحُ أحوالهم مع أسرهم فقال: «**لا يفركْ** -أي: لا يبغض- **مؤمنٌ مؤمنةً؛ إنْ كرهَ منها خلقاً، رضيَ منها آخرَ**»(٣).

«أيْ: ينبغي أنْ لا يبغضها؛ لأنّهُ إنْ وجدَ فيها خلقاً يكره؛ وجدَ فيها خلقاً مرضيّاً، بأنْ تكون شرسة الخلق لكنّها ديّنةٌ، أوْ جميلةٌ، أوْ عفيفةٌ، أوْ رفيقةٌ بهِ، أوْ نحوُ ذلكَ»(٤).

وهكذا فقد كانَ النبيُّ ﷺ حسنَ العشرةِ مع زوجاته، دائمَ البشرِ، حريصاً على إدخالِ السرورِ إلى نفوسهنَّ، يجلسُ إليهنَّ، ويأكلُ معهنَّ، ويحادثهن، ويمازحهنَّ، ويشاورهنَّ، ويستمعُ إليهنَّ، ويواسيهنَّ، ويطمئنُّ عليهنَّ، ويتغاضى عن تقصيرهنَّ وأخطائهنَّ.

بل كان يوصي بأهل نسائه خيراً:

عنْ أبي ذرٍّ الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنّكمْ ستفتحونَ مصرَ، وهيَ أرضٌ**

---

(١) رواه أحمد [١٩٥٨٩]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [١٩٤٤].

(٢) رواه الترمذي [١٠٨٣]، وابن ماجة [١٨٥١] عن عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٧٨٨٠].

(٣) رواه مسلم [٢٦٧٢] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي [١٠/ ٥٨].

يسمّى فيها القيراطُ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإنَّ لهمْ ذمّةً ورحماً». أوْ قالَ: «**ذمّةً وصهراً**»[١].

الذّمّة: هيَ الحرمة والحقّ. وأمّا الرّحم فلكونِ هاجرَ أمّ إسماعيل منهمْ. وأمّا الصّهر فلكونِ مارية أمّ إبراهيم منهمْ[٢].

وكان ﷺ يراعي مشاعر زوجته:

ويعرف هل هي راضيةٌ عليه أم ساخطةٌ، فها هو يقول لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إنّي لأعلمُ إذا كنتِ عنّي راضيةً، وإذا كنتِ عليَّ غضبى**»، فقالت: ومنْ أينَ تعرفُ ذلكَ؟ قالَ: «**أمّا إذا كنتِ عنّي راضيةً؛ فإنّكِ تقولينَ: لاَ، وربِّ محمّدٍ، وإذا كنتِ غضبى؛ قلتِ: لاَ، وربِّ إبراهيمَ**»، قالت: أجل والله يا رسولَ الله، ما أهجرُ إلّا اسمكَ[٣].

فلم يكنُ من الرجالِ الذين لا يبالون بزوجاتهم، رضينَ أم سخطنَ.

فهذا النبيُّ العظيمُ ﷺ الذي لم تشغلهُ همومُ الدولةِ، والغزو، والجهاد، وتجهيز الجيوشِ، ونشر الدعوةِ في العالمِ، وإرسال الرسائلِ إلى كسرى وقيصرَ، ومتابعة الأمورِ العظيمةِ، لم يشغلهُ ذلك عن مراعاةِ مشاعرِ زوجته.

فأينَ هذا، ممن لا يراعي مشاعرَ زوجته، ولا يبالي بأمرها، سواء كانت راضيةً أم ساخطةً، سعيدةً أم حزينةً؟!

ومن ذلك: مراعاته لمشاعر أم المؤمنين صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلما عيّرتها حفصة بأنها ابنة يهوديٍّ؛ دافعَ عنها رسولُ الله ﷺ، وطيّبَ خاطرها بكلام يشرحُ الصدرَ، ويهدّئُ الخاطرَ.

فعنْ أنسِ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: بلغَ صفيّةَ أنَّ حفصةَ قالتْ: بنتُ يهوديٍّ، فبكتْ، فدخلَ عليها النّبيُّ ﷺ وهيَ تبكي، فقالَ: «**ما يبكيكِ؟**»، فقالتْ: قالتْ لي حفصةُ: إنّي بنتُ

---

(١) رواه مسلم [٢٥٤٣].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٦/ ٩٧].

(٣) رواه البخاري [٥٢٢٨]، ومسلم [٢٤٣٩].

يهوديٍّ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**إنّكِ لابنةُ نبيٍّ، وإنَّ عمّكِ لنبيٌّ، وإنّكِ لتحتَ نبيٍّ، ففيمَ تفخرُ عليكِ؟**»[١].

«**وإنّك لابنةُ نبيٍّ**» أيْ: هارونُ بنُ عمرانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، «**وإنَّ عمّك لنبيٌّ**» أيْ: موسى ابنُ عمرانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

بل كان يواسي زوجته إن رآها حزينةً أو مريضةً:

فعندما حاضتْ عائشةُ وهي في الحجِّ دخلَ عليها وهي تبكي، فقالَ: «ما لكِ أنفستِ؟»، قالت: نعمْ، قالَ: «**إنَّ هذا أمرٌ كتبهُ اللهُ على بناتِ آدمَ، فاقضي ما يقضي الحاجُّ غيرَ أنْ لا تطوفي بالبيتِ..**».

فلمّا قضيتُ الحجَّ، أمرَ عبدَ الرّحمنِ، فأعمرني منَ التّنعيمِ، مكانَ عمرتي الّتي نسكتُ[٣].

ومن الأمورِ التي ينبغي على الأزواجِ أن يراعوها مع زوجاتهم: ما تتعرّض له زوجاتهم من تغيّرٍ لطباعهنَّ؛ بسببِ الحيضِ والنفاسِ والولادةِ، وما يحدثُ لهنَّ من تعبٍ، وضيقٍ، وألمٍ.

بل عندما يستشعرُ الزوجُ هذه الحالاتِ ويقدّرها لزوجته؛ فإن الزوجةَ تكونُ مدينةً له بذلكَ الجميلِ.

وإذا مرضتْ زوجته ﷺ رقاها، ومسح بيده الحانية عليها:

عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يعوّذُ بعضَ أهلهِ يمسحُ بيدهِ اليمنى[٤]، ويقولُ: «**اللهمَّ ربَّ النّاسِ، أذهبْ الباسَ، اشفهِ وأنتَ الشّافي، لا شفاءَ إلّا شفاؤكَ، شفاءً لا يغادرُ سقماً**»[٥].

---

(١) رواه الترمذي [٣٨٢٩]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٣٠٥٥].

(٢) تحفة الأحوذي [١٠/ ٢٦٨].

(٣) رواه البخاري [٣١٦]، ومسلم [١٢١١].

(٤) أي: تفاؤلا بزوال الوجع، مع ما فيه من حنان وعطف

(٥) رواه البخاري [٥٧٤٣]، ومسلم [٢١٩١].

فالـزوجُ إذا تلمّـس مواضعَ الألمِ من زوجته وحنا عليها، ووضعَ يده على مكانِ الألمِ من زوجتـه؛ كان لذلـك عظيمُ الأثـرِ في نفسِ المـرأةِ وإن لمْ يذهبِ الألمُ، وإن بقيَ الـداءُ، لكنّها تشعرُ أنه يحسُّ بها، وبآلامها.

وقـد عابـتْ إحدى النسـاء زوجها -كـما في قصةِ حديـثِ أمِّ زرع- بقولهـا: «ولا يولجُ الكفَّ؛ ليعلم البثّ»[1].

«أي: لا يمـدُّ يـده؛ ليعلمَ ما هي عليهِ من الحزنِ فيزيله، ... والمرادُ بالبثِّ الحزنُ، ويطلقُ البثُّ أيضاً على الشكوى، وعلى المرضِ.. فأرادت أنه لا يسألُ عن الأمرِ الذي يقعُ اهتمامها به، فوصفتهُ بقلةِ الشفقةِ عليها»[2].

فهي تعيبه بذلك! فالمواساة بين الزوجين عند حلول كربٍ، أو نزول مرضٍ مطلوبةٌ.

ولكـنَّ بعـضَ الأزواجِ لا يراعي هـذه الحالاتِ، ويريدُ أن تكونَ المرأةُ صحيحةً سـليمةً دائـماً، فـإذا مرضتْ؛ ذهبَ بها إلى بيتِ أهلها، وتركها حتى تشـفى؛ لأنه لا يطيق مجالسـتها وهي على هذه الحالِ.

ومن مواساته ﷺ: مسحه لدموع زوجته صفيّة بيده لمّا مرض جملها في طريق السفر.

عـنْ صفيّةَ بنتِ حييٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النّبيَّ ﷺ حجَّ بنسـائهِ، فلـمّا كانَ في بعضِ الطّريقِ؛ نزلَ رجلٌ، فسـاقَ بهـنَّ، فـأسرعَ، فقالَ النّبـيُّ ﷺ: «كـذاكَ سـوقكَ بالقواريرِ، يعني النّسـاءَ»، فبينا همْ يسـيرونَ بركَ بصفيّـةَ بنتِ حييٍّ جملها، وكانتْ منْ أحسـنهنَّ ظهراً، فبكتْ، وجاءَ رسولُ الله ﷺ حينَ أخبرَ بذلكَ، فجعلَ يمسحُ دموعها بيدهِ[3].

فمسـحُ الدموعِ بيدِ الزوجِ فيه مواسـاةٌ كبيرةٌ، وتقديرٌ لعواطفِ ومشاعرِ الزوجةِ، مع أن سـببَ البكاءِ أمرٌ هيّنٌ، إذ بكتْ بسـببِ بروك جملها الذي كان يعدُّ من أحسـنِ الجمالِ، ومع ذلك لم يحقّرِ النبيُّ ﷺ مشاعرَ صفيةَ وعواطفها.

---

(١) رواه البخاري [٥١٨٩]، ومسلم [٢٤٤٨] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بطوله.

(٢) فتح الباري [٩/ ٢٦٣].

(٣) رواه أحمد [٢٦٣٢٥]، وصححه الألباني في الصحيحة [٣٢٠٥].

فالزوجةُ تمرُّ أحيانًا بأزماتٍ، أو مشكلاتٍ، وتحتاجُ إلى تطييب خاطرها ببسمةٍ حانيةٍ، ونبرةٍ صافيةٍ، تحتاجُ إلى من يخفّفُ عنها ما هي فيه حتى تشعر أنها ليستْ وحدها تواجهُ هذه الأزماتِ والمشكلاتِ.

قد تفقدُ المرأةُ قريباً لها -أباً، أمّاً، أخاً- فتحتاجُ إلى من يصبّرها، ويذكّرها بفضيلةِ الصبرِ، ويواسيها، ولكن قد يكونُ هذا الخلقُ غائباً عنْ بعضِ الناسِ، فتجده لا يبالي بما تتعرّضُ له زوجته من مصائبَ، ولا بما يقعُ عليها من مشاكلَ.

بل قد تجدُ من يحقّرُ مصيبتها، ويسخرُ منها، ويستهزئ بما يحصلُ لها.

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**اللهمَّ إنّي أحرّجُ حقَّ الضّعيفينِ: اليتيمِ، والمرأةِ**»[1].

«**أحرّج**» أيْ: أضيّق على النّاس في تضييع حقّهما، وأشدّدُ عليهمْ في ذلكَ، والمقصود إشهاده تعالى في تبليغ ذلكَ الحكم إليهمْ[2].

وقد بلغَ من رفقه ﷺ بزوجاته، وحسن عشرته لهنَّ: أن ترفع زوجته صوتها عليه فيحتمل ذلك منها.

عنِ النّعمانِ بنِ بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: جاءَ أبو بكرٍ يستأذنُ على النّبيِّ ﷺ، فسمعَ عائشةَ، وهيَ رافعةٌ صوتها على رسولِ الله ﷺ، فأذنَ لهُ فدخلَ، فقالَ: يا ابنةَ أمِّ رومانَ، وتناولها، أترفعينَ صوتكِ على رسولِ الله ﷺ؟! فحالَ النّبيُّ ﷺ بينهُ وبينها، فلمّا خرجَ أبو بكرٍ، جعلَ النّبيُّ ﷺ يقولُ لها يترضّاها: «ألا ترينَ أنّي قدْ حلتُ بينَ الرّجلِ وبينكِ»، ثمَّ جاءَ أبو بكرٍ، فاستأذنَ عليهِ، فوجدهُ يضاحكها، فأذنَ لهُ فدخلَ، فقالَ لهُ أبو بكرٍ: يا رسولَ الله أشركاني في سلمكما، كما أشركتماني في حربكما[3].

بل ربما راجعتهُ إحداهنَّ في الأمر، وهجرته إلى الليل، ويحتمل ذلك منها، كما قالَ

(١) رواه ابن ماجة [٣٦٧٨] وصححه الألباني في الصحيحة [١٠١٥].

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجة [٧/ ٨٣].

(٣) رواه أحمد [١٧٩٢٧] وصححه الألباني في الصحيحة [٢٩٠١].

عمر: كنّا معشرَ قريشٍ نغلبُ النّساءَ، فلمّا قدمنا على الأنصارِ إذا قومٌ تغلبهمْ نساؤهمْ، فطفقَ نساؤنا يأخذنَ منْ أدبِ نساءِ الأنصارِ، فصخبتُ عليَّ امرأتي فراجعتني، فأنكرتُ أنْ تراجعني. [أيْ: ترادديني في القول وتناظرني فيهِ]، فقالتْ: ما تنكرُ أنْ أراجعكَ، فوالله إنَّ أزواجَ النّبيِّ ﷺ ليراجعنهُ، وتهجرهُ إحداهنَّ اليومَ إلى اللّيلِ، فانطلقتُ، فدخلتُ على حفصةَ، فقلتُ: أتراجعينَ رسولَ الله ﷺ؟ فقالتْ: نعمْ، فقلتُ: أتهجرهُ إحداكنَّ اليومَ إلى اللّيلِ، قالتْ: نعمْ... الحديث[١].

وفيه: أن شدةَ الوطأةِ على النساءِ مذمومٌ؛ لأن النبي ﷺ أخذَ بسيرةِ الأنصارِ في نسائهم، وتركَ سيرةَ قومه.

وفيه: الصبرُ على الزوجاتِ والإغضاءُ عن خطأهنَّ، والصفحُ عما يقعُ منهنَّ من زللٍ في حقِّ المرءِ، دونَ ما يكونُ من حقِّ الله تعالى»[٢].

وقد بلغ من حسن معاشرةِ الرسولِ ﷺ لنسائه: أنه كان يقوم بمساعدتهن في تدبير شؤون المنزل.

عنَ الأسودِ قالَ: سألتُ عائشةَ: ما كانَ النّبيُّ ﷺ يصنعُ في بيته؟ قالتْ: «كانَ يكونُ في مهنةِ أهلهِ، فإذا حضرتِ الصّلاةُ خرجَ إلى الصّلاةِ»[٣].

«**في مِهنةِ أهلهِ**»، يعني: خدمةَ أهلهِ، أيْ: عملهمْ، وخدمتهمْ، وما يصلحهمْ[٤].

وقدْ وقعَ تفسيرُ هذه الخدمةِ في رواياتٍ أخرى بقولها: «ما كانَ إلّا بشراً منَ البشر؛ يفلي ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخدم نفسهُ»[٥].

---

(١) رواه البخاري [٨٩] ومسلم [١٤٧٩] عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) فتح الباري [٩/ ٢٩١].

(٣) رواه البخاري [٦٧٦].

(٤) طرح التثريب [٩/ ٥٣].

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد [٥٤١]، والترمذي في الشمائل [٣٤٣]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٩٩٦].

وعند أحمد [٢٤٣٨٢] عنها: «كانَ يخيطُ ثوبهُ ويخَصفُ نعلهُ ويعملُ ما يعملُ الرّجالُ في بيوتهمْ»، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٤٩٣٧].

«يَفلي ثوبه» أي: ينظر في الثوب هل فيه شيءٌ من الأذى والوسخِ.

«يخَصفُ نعلهُ» أيْ: يخرزها طاقةً على الأخرى، منَ الخصفِ وهوَ الضّمُّ والجمعُ[١].

ومن الناسِ الآنَ من يحمّلُ زوجته أعباءً وأحمالاً فوقَ طاقتها، وربما يراها متعبةً، أو مريضةً، فلا يكترث لذلك، ولا يساعدها في شئونِ المنزلِ، وليس هذا من حسن العشرة.

وكان ﷺ يساعد زوجته في ركوبها على الدابة:

فلما أرادتْ صفيّةُ أن تركبَ البعيرَ، -قال أنسٌ-: فرأيتُ النّبيَّ ﷺ يحوّي لها وراءهُ بعباءةٍ -يعني: يحيطها ويشملها بها، ثمَّ يجلسُ عندَ بعيرِهِ، فيضعُ ركبتهُ، وتضعُ صفيّةُ رجلها على ركبتهِ حتّى تركبَ[٢].

فرسولُ الله ﷺ يضعُ لها ركبته؛ لتصعدَ عليها وتركبَ، وهذا غاية التواضعِ والرحمةِ والإحسان في معاملة الزوجةِ.

وقد كان ﷺ يهتمُّ بنظافته ورائحته الطيبة:

فكانَ إذا دخلَ بيته بدأ بالسواكِ، حتى لا تشمَّ منه زوجه رائحةً متغيرة.

عنْ شريحِ بن هانئ قالَ: سألتُ عائشةَ، قلتُ: بأيِّ شيءٍ كانَ يبدأُ النّبيُّ ﷺ إذا دخلَ بيتهُ؟ قالتْ: بالسّواكِ[٣].

«والحكمة في ذلكَ: أنّهُ ربّما تغيّرتْ رائحة الفم عند محادثة النّاس، فإذا دخلَ البيت كانَ منْ حسن معاشرة الأهلَ إزالةُ ذلكَ»[٤].

---

(١) النهاية [٢/ ١٠٠].

(٢) رواه البخاري [٢٨٩٣]، ومسلم [١٣٦٥].

(٣) رواه مسلم [٢٥٣].

(٤) حاشية السيوطي على سنن النسائي [١/ ١٠].

وكان يحرصُ على نظافة فمه، وأسنانه كلما استيقظَ من نومه، فعنْ عائشةَ: «أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ لا يرقدُ منْ ليلٍ، ولا نهارٍ، فيستيقظُ؛ إلّا تسوّكَ قبلَ أنْ يتوضّأَ»(١).

وهذا يدلُّ على استحبابِ تعاهدِ السواكِ؛ لما يكرهُ من تغيّرِ رائحةِ الفمِ بالأبخرة، والأطعمة، وغيرها(٢).

قال ابن القيم: «وكانَ ﷺ يحبُّ السّواكَ، وكانَ يستاكُ مفطراً، وصائماً، ويستاكُ عندَ الانتباهِ منَ النّومِ، وعندَ الوضوءِ، وعندَ الصّلاةِ، وعندَ دخولِ المنزلِ، وكانَ يستاكُ بعودِ الأراكِ»(٣).

وهذا أمرٌ مهمٌّ للغايةِ في الحياةِ الزوجيةِ، ويكفي أن نعلمَ أن من أحدِ أسبابِ قضايا الطلاقِ المرفوعةِ في المحاكم اليوم: عدمَ اهتمامِ أحدِ الزوجينِ بنظافةِ الفمِ والأسنانِ.

فكان رسول الله ﷺ يحرصُ على أن لا تظهرَ منه إلا الريحُ الطيبة:

عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «كانَ رسولُ الله ﷺ يشتدُّ عليهِ أنْ يوجدَ منهُ الرّيحُ»(٤).

أي: الغيرُ الطّيّبِ، وفي روايةٍ عنِ ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وكانَ أشدَّ شيء عليهِ أنْ يوجد منهُ ريحٌ سيّئٌ»(٥).

وكانَ من أخلاقه التطيّبُ، يحبّهُ، ويكثرُ منه، بل هو إحدى محبوباته الدنيويّة كما في الحديث: «**حُبِّبَ إليَّ منَ الدّنيا: النّساءُ، والطّيبُ، وجعلتْ قرّةُ عيني في الصّلاةِ**»(٦).

بل إنه ﷺ تركَ بعضَ المباحاتِ، كالثّومِ والبصلِ ونحوهما، لرائحتها الكريهةِ.

أين هذا ممن يدخلُ بيته ويأتي إلى زوجته ورائحةُ الدّخانِ تنبعثُ منه، وهي ربما تكون

---

(١) رواه أبو داود [٥٧]، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [٤٨٥٣].

(٢) المفهم [٣/ ١٣٦].

(٣) زاد المعاد [١/ ١٦٧].

(٤) رواه البخاري [٦٩٧٢]، ومسلم [١٤٧٤].

(٥) المعجم الأوسط [٨٧٦٤].

(٦) رواه النسائي [٣٩٣٩] عنْ أنسِ بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣١٢٤].

قد تطيّبتْ له بأجملِ الأطيابِ، فتنبعثُ منها الروائحُ الزكيّةُ، أما هو: فتنبعثُ منه الروائحُ الكريهةُ!

وكان ﷺ يتجمّلُ لنسائه، ويرجّلُ شعره، ويهتمُّ به:

وأمر بذلك أصحابه فقال: «**منْ كانَ لهُ شعرٌ؛ فليكرمهُ**»(١).

«أيْ: فليزيّنهُ، ولينظّفهُ: بالغسلِ، والتّدهين، والتّرجيل، ولا يتركهُ متفرّقاً؛ فإنَّ النّظافةَ وحسنَ المنظرِ محبوبٌ..»(٢).

فينبغي على الزّوجِ أن يتجمّل، ويتنظّف لزوجته، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنّي لأحبُّ أنْ أتزيّنَ للمرأةِ كما أحبُّ أنْ تتزيّنَ لي المرأةُ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]»(٣).

فكان ﷺ يرجّلُ شعره ويمشطه:

فعنْ سهل بن سعدٍ الأنصاريَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلاً اطّلعَ منْ جحرٍ في بابِ رسولِ الله ﷺ، ومعَ رسولِ الله ﷺ مدرًى(٤) يرجّلُ بهِ رأسهُ...(٥).

وأحياناً يجعل زوجته ترجّلُ له شعره، فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النّبيَّ ﷺ إذا اعتكفَ يدني إليَّ رأسهُ فأرجّلهُ(٦).

وتغسل له رأسه أيضاً، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كنتُ أغسلُ رأسَ رسولِ الله ﷺ وأنا حائضٌ»(٧).

---

(١) رواه أبو داود [٤١٦٣] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٦٤٩٣].

(٢) عون المعبود [٩/ ١١٨٣].

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره [٤/ ٥٣٢].

(٤) المدرى: شيء يعمل من حديد أو خشبٍ على شكل سنّ من أسنان المشطِ وأطول منه يسّرح به الشّعر المتلبّد، ويستعمله من لا مشط له. النهاية [٢/ ٢٦٠]

(٥) رواه البخاري [٥٩٢٤]، ومسلم [٢١٥٦].

(٦) رواه البخاري [٢٠٢٩]، ومسلم [٢٩٧].

(٧) رواه البخاري [٣٠١]، ومسلم [٢٩٧].

فرعايتـه ﷺ لجميعِ وسـائلِ النظافـةِ أمرٌ واضحٌ غايةَ الوضوح في سـيرته، وقد ندبَ إلى ذلكَ جميعَ أمّته، فحثّهم على سننِ الفطرةِ؛ ليكونَ الإنسانُ على أحسنِ حالٍ، وأجملِ هيئةٍ.

وكان ﷺ سهلاً هيّناً ليّناً في التعامل مع زوجته:

فإذا هويتْ شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه.

عـنْ جابـرِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في وصف حجّةِ رسـولِ الله ﷺ أنَّ عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «يـا رسـولَ الله إنّي أجـدُ في نفسي أنّي لمْ أطـفْ بالبيتِ حتّـى حججتُ»، قال جابـرُ: «وكانَ رسولُ الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويتْ الشّيءَ تابعها عليه»[1].

«رجلاً سهلاً» أيْ: سهل الخلق، كريمَ الشّمائلِ، لطيفاً ميسّراً في الخلق، كما قالَ الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

أمـا اليوم: فكثيراً مـا لا تجد بين الزوجينِ إلا الجدالَ، والخصامَ، والنّكد، والمشاكسـة في كل شيءٍ.

وكان يقرُّ أهله على النظر إلى اللهو المباح:

عنْ عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسـولُ الله ﷺ جالسـاً، فسـمعنا لغطاً وصوتَ صبيانٍ، فقامَ رسولُ الله ﷺ، فإذا الحبشةُ يلعبونَ بحرابهمْ، فقالَ: «**يا عائشةُ تعاليْ فانظري**»، فجئتُ، فوضعـتُ لَحْيـيَّ على منكبِ رسـولِ الله ﷺ، فجعلتُ أنظرُ إليهم ما بينَ المنكبِ إلى رأسـهِ، فقالَ لي: «**أما شبعتِ، أما شبعتِ؟**»، فجعلتُ أقولُ: لا؛ لأنظرَ منزلتي عندهُ[2].

«وفيه: حسنُ خلقهِ الكريمِ، وجميلُ معاشرته لأهلهِ»[3].

وقال ابن بطال: «فيه: ما كان عليه النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ من الخلق الحسـنِ، وما ينبغي للمرءِ أن يمتثلهُ مع أهله؛ من إيثاره مسارهم، فيما لا حرج عليهم فيه»[4].

---

(١) رواه مسلم [١٢١٣].

(٢) رواه الترمذي [٣٦٩١] وصححه الألباني، وأصله في البخاري [٤٥٥]، ومسلم [٨٩٢].

(٣) عمدة القاري [٧/ ٧٧].

(٤) شرح صحيح البخاري [٢/ ٥٤٨].

وفي رواية: «فجعلتُ أنظرُ إلى لعبهمْ، حتّى كنتُ أنا الّتي أنصرفُ عنِ النّظرِ إليهمْ»[١].

وفي رواية: «قلت: يا رسولَ الله لا تعجل، فقامَ لي، ثمَّ قالَ: «**حسبك؟**»، قلت: لا تعجل، قالت: وما بي حبُّ النّظرِ إليهمْ، ولكنْ أحببتُ أنْ يبلغَ النّساءَ مقامهُ لي، ومكاني منهُ»[٢].

«وفيه: أن تفسيرَ حسنِ المعاشرةِ هو: الموافقةُ، والمساعدة على الإرادةِ غير المحرّمةِ، والصبرُ على أخلاقِ النساءِ في غيرِ المحرّمِ من اللهوِ، وإن كان الصابرُ كارهاً لما يحبّهُ أهله»[٣].

ولم يكن ﷺ يمانع من سماع زوجته الغناءَ المباح في العيد:

عنْ عائشةَ قالتْ: دخلَ رسولُ الله ﷺ، وعندي جاريتانِ تغنّيانِ بغناءِ بعاثٍ. -هو يوم جرى فيه قتالٌ بين الأوس والخزرج، فاضطجعَ على الفراشِ، وحوّلَ وجههُ، فدخلَ أبو بكرٍ، فانتهرني، وقالَ: «مزمارُ الشّيطانِ عندَ رسولِ الله ﷺ!»، فأقبلَ عليهِ رسولُ الله ﷺ فقالَ: «**دعهما**»، فلمّا غفلَ غمزتهما، فخرجتا، وكانَ يومَ عيدٍ[٤].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا الحديثِ منْ الفوائدِ: مشروعيّة التّوسعة على العيالِ في أيّامِ الأعيادِ بأنواعِ ما يحصلُ لهمْ به بسطُ النّفس، وترويحُ البدن منْ كلفِ العبادةِ... وفيهِ الرّفقُ بالمرأةِ واستجلاب مودّتها»[٥].

فكانَ النبيُّ ﷺ يرخّصُ لهم في أوقاتِ الأفراحِ، كالأعيادِ والنكاحِ في الضربِ بالدفوفِ، والتغنّي مع ذلك بهذه الأشعارِ، وما كان في معناها.

ولمّا فُتحتْ بلادُ فارسَ والروم؛ ظهرَ للصحابةِ ما كانَ أهلُ فارسَ والروم قد اعتادوه من الغناءِ الملحّنِ بالإيقاعاتِ الموزونةِ على طريقةِ الموسيقى، بالأشعارِ التي توصفُ فيها

---

(١) رواه مسلم [٨٩٢].

(٢) رواه النسائي في الكبرى [٨٩٥١]، وصححه الألباني في الصحيحة [٣٢٧٧].

(٣) شرح صحيح البخارى [٧/ ٢٩٨] لابن بطال.

(٤) رواه البخاري [٩٥٠]، ومسلم [٨٩٢].

(٥) فتح الباري [٢/ ٤٤٣].

المحرّماتُ من الخمورِ، والصّورِ الجميلةِ المثيرةِ للهوى الكامنِ في النفوسِ، بآلات اللهوِ المطربة، فأنكروا ذلك كله، ونهوا عنه، وغلّظوا فيهِ.

وهذا يدلُّ على أنهم فهموا أن الغناءَ الذي رخّصَ فيه النبيُّ ﷺ لأصحابه لم يكن هذا الغناءَ، ولا آلاته هي هذه الآلاتِ، وأنه إنما رخّص فيما كان في عهده مما يتعارفه العربُ بآلاتهم.

فأما غناءُ الأعاجمِ بآلاتهم: فلم تتناولهُ الرّخصةُ، وإن سمّيَ غناءً، فبينهما من التباينِ ما لا يخفى على عاقلٍ؛ فإنَّ غناءَ الأعاجمِ بآلاتها يثيرُ الهوى، ويغيّرُ الطباعَ، ويدعو إلى المعاصي، فهو رقيةُ الزّنا.

وغناءُ الأعرابِ المرخّصُ به ليسَ فيه شيءٌ من هذه المفاسدِ بالكلّيّة البتّةَ. فمن قاسَ أحدهما على الآخرِ؛ فقدْ أخطأَ أقبحَ الخطأِ، وقاسَ مع ظهور الفرقِ بين الفرعِ والأصلِ، فقياسه من أفسدِ القياسِ، وأبعده عن الصوابِ[1].

فاللهو الذي أباح النبيُّ ﷺ لزوجته استماعه هو اللهوُ البريءُ، والمتعةُ المباحةُ.

ولم يقتصرْ هديه ﷺ مع زوجته على ذلك، بل كان يسرّب إلى عائشة جوارٍ، فيلعبنَ معها باللّعبِ، وكان ﷺ يتحاشى تنفير هؤلاء الضيوف.

فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كنتُ ألعبُ بالبناتِ عندَ النّبيِّ ﷺ، وكانَ لي صواحبُ يلعبنَ معي، فكانَ رسولُ الله ﷺ إذا دخلَ يتقمّعنَ منهُ[2]، فيسّربهنَّ إليَّ فيلعبنَ معي[3].

قال النووي: «وهذا منْ لطفهِ ﷺ وحسنِ معاشرته»[4].

وقد كانتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ تلعب بالبنات واللعب ذوات الأشكال، وكان رسول الله ﷺ يمازحها ويضحك معها.

---

(١) انظر: فتح الباري [٦/ ٧٨] لابن رجب.

(٢) أي: يتغيّبنَ منهُ، ويدخلنَ منْ وراء السّتر.

(٣) رواه البخاري [٦١٣٠]، ومسلم [٢٤٤٠].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [١٠/ ٢٠٥].

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قدمَ رسولُ الله ﷺ منْ غزوةِ تبوكَ أوْ خيبرَ، وفي سهوتها[١] سترٌ، فهبّتْ ريحٌ، فكشفتْ ناحيةَ السّترِ عنْ بناتٍ لعائشةَ لعبٍ، فقالَ: «**ما هذا يا عائشةُ؟**»، قالتْ: بناتي، ورأى بينهنَّ فرساً لهُ جناحانِ منْ رقاعٍ، فقالَ: «**ما هذا الّذي أرى وسطهنَّ؟**»، قالتْ: فرسٌ، قالَ: «**وما هذا الّذي عليهِ؟**»، قالتْ: جناحانِ، قالَ: «**فرسٌ لهُ جناحانِ!**»، قالتْ: أما سمعتَ أنَّ لسليمانَ خيلاً لها أجنحةٌ؟، فضحكَ حتّى رأيتُ نواجذهُ[٢].

فكمْ أدخلتْ تلك الضّحكةُ منه ﷺ من السرورِ على قلبِ زوجته، وكم كانَ لتلك المداعبةِ من الأثرِ الحسنِ على مشاعرها.

بل إنه ﷺ حثَّ الأزواجَ على هذا الأمرِ؛ لأنه يستدعي الوئام ويجلبُ المسرّةَ إلى القلوبِ؛ فقال لجابر بن عبد الله لّما تزوج: «**هلّا جاريةً تلاعبها وتلاعبكَ، أوْ تضاحكها وتضاحككَ**»[٣].

وقال: «**كلُّ شيءٍ ليسَ منْ ذكرِ الله عَزَّوَجَلَّ فهوَ لهوٌ، إلا أربعَ خصالٍ: مشيُ الرّجلِ بينَ الغرضينِ** [الغرض: هو ما يقصده الرّماة بالإصابة]**، وتأديبهُ فرسهُ، وملاعبةُ أهلهِ، وتعلّمُ السّباحةِ**»[٤].

فالملاعبةُ، والمضاحكةُ بين الزوجين تملأُ القلوبَ مسرّةً، والبيتَ أنساً ومحبّةً؛ فتقوى الرابطةُ الزوجيّةُ، وتتعمّقُ الألفةُ والمودّةُ، والمحبّةُ بين الزوجينِ.

«فالمداعبة والمزحُ، والملاعبة هي التي تطيّبُ قلوبَ النساء»[٥].

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مع شدّته وصلابته- يقول: «ينبغي للرّجلِ أنْ يكونَ في أهلهِ مثلَ الصّبيِّ، فإذا التمسَ ما عندهُ وجدَ رجلاً»[٦].

---

(١) السّهوة: بيتٌ صغيرٌ منحدرٌ في الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة. وقيل هو كالصّفّة تكون بين يدي البيت. وقيل: شبيه بالرّفِّ أو الطاقِ يوضع فيه الشيءُ. النهاية [٢/ ١٠٤٧]

(٢) رواه أبو داود [٤٩٣٢]، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري [٢٠٩٧]، ومسلم [٧١٥].

(٤) رواه الطبراني في الكبير [١٧٨٥]، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب [١٢٨٢].

(٥) موعظة المؤمنين [ص١٦٨].

(٦) المجالسة وجواهر العلم [٣/ ٤٣٠].

وقال ثابتُ بنُ عبيد: «كان زيدُ بنُ ثابتٍ من أفكهِ الناسِ في بيته، فإذا خرجَ، كانَ رجلاً من الرجالِ»(١).

ووصفتْ أعرابيّةٌ زوجها وقدْ ماتَ، فقالتْ: «والله لقدْ كانَ ضحوكاً إذا ولجَ، سِكّيتاً إذا خرجَ، آكلاً ما وجدَ، غيرَ سائلٍ عمّا فقدَ»(٢).

وكثيرٌ من الناسِ يضحكُ ويبتسمُ في وجوهِ أصحابه وزملائه، فإذا ما دخل البيتَ اختفتْ تلكَ الابتساماتُ؛ ليصبحَ عابسَ الوجهِ، مقطّباً جبينهُ.

ولم يقتصر الأمر على المضاحكةِ، بل كان يسابق زوجته في الجري:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: خرجتُ معَ النّبيِّ ﷺ في بعضِ أسفارهِ، وأنا جاريةٌ لمْ أحملِ اللّحمَ، ولمْ أبدنْ، فقالَ للنّاسِ: «**تقدّموا**»، فتقدّموا، ثمَّ قالَ لي: «**تعاليْ؛ حتّى أسابقكِ**»، فسابقتهُ، فسبقتهُ، فسكتَ عنّي حتّى إذا حملتُ اللّحمَ وبدنتُ، ونسيتُ، خرجتُ معهُ في بعضِ أسفارهِ، فقالَ للنّاسِ: «**تقدّموا**»، فتقدّموا، ثمَّ قالَ: «**تعاليْ؛ حتّى أسابقكِ**»، فسابقتهُ، فسبقني، فجعلَ يضحكُ، وهوَ يقولُ: «**هذهِ بتلكَ**»(٣).

والمعنى: تقدّمي عليكِ في هذهِ النّوبة في مقابلةِ تقدّمكِ عليَّ في النّوبة الأولى.

فالنبيُّ الكريمُ ﷺ مع مشاغله الكثيرةِ، يراعي حاجةَ الزوجةِ إلى الترفيهِ، ويفعلُ هذا الأمرَ الذي يأنفُ بعضنا اليومَ من فعله، حتى ولو كان خالياً في البرِّ!!

بل قد يتحرّجُ البعضُ من المشيِ مع زوجته، فضلاً عن مسابقتها.

وكانَ إذا صحبَ أهله معه في السفرِ سامرهُنَّ، وتبادل معهنّ أطراف الحديث:

عنْ عائشةَ قالتْ: «كانَ رسولُ الله ﷺ إذا خرجَ؛ أقرعَ بينَ نسائهِ فطارتْ القرعةُ على عائشةَ وحفصةَ، فخرجتا معهُ جميعاً، وكانَ رسولُ الله ﷺ إذا كانَ باللّيلِ سارَ معَ عائشةَ

---

(١) شرح السنة للبغوي [١٣/ ١٨٣].

(٢) موعظة المؤمنين ص [١٠٦].

(٣) رواه أحمد [٢٥٧٤٥] واللفظ له، وأبو داود [٢٥٧٨]، وابن ماجة [١٩٧٩]، وصححه الألباني في الصحيحة [١٣١].

يتحدّثُ معها، فقالتْ حفصةُ لعائشةَ: ألا تركبينَ اللّيلةَ بعيري، وأركبُ بعيركِ فتنظرينَ وأنظرُ؟ قالتْ: بلى، فركبتْ عائشةُ على بعيرِ حفصةَ، وركبتْ حفصةُ على بعيرِ عائشةَ، فجاءَ رسولُ الله ﷺ إلى جملِ عائشةَ وعليهِ حفصةُ، فسلّمَ ثمَّ سارَ معها حتّى نزلوا، فافتقدتهُ عائشةُ، فغارتْ، فلمّا نزلوا؛ جعلتْ تجعلُ رجلها بينَ الإذخرِ، وتقولُ: يا ربِّ سلّطْ عليَّ عقرباً أوْ حيّةً تلدغني، رسولكَ، ولا أستطيعُ أنْ أقولَ لهُ شيئاً»[1].

وهذا الّذي فعلتهُ وقالتهُ حملها عليهِ فرط الغيرة على رسول الله ﷺ، وأمر الغيرة معفوّ عنهُ.

ومن كمال شفقته ﷺ على أهله في السفرِ أنه كان يوصي الحاديَ أن يخفّف رفقاً بهنَّ.

عنْ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ رسولُ الله ﷺ في بعضِ أسفارهِ، وغلامٌ أسودُ يقالُ لهُ أنجشةُ يحدو، فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ: «**يا أنجشةُ، رويدكَ سَوْقاً بالقواريرِ**»[2].

«**سوقاً**» أيِ: ارفقْ في سوقك بالقواريرِ، يعني ضعفة النّساء.

قالَ العلماء: سمّيَ النّساءُ قواريرَ؛ لضعفِ عزائمهنَّ تشبيهاً بقارورةِ الزّجاج لضعفها، وإسراع الانكسار إليها.

والمرادُ بهِ: الرّفقُ في السّير؛ لأنَّ الإبلَ إذا سمعت الحداءَ أسرعتْ في المشي واستلذّتهُ، فأزعجتِ الرّاكبَ، فنهاهُ عنْ ذلكَ؛ لأنَّ النّساء يضعفنَ عند شدّة الحركة، ويخافُ ضررهنَّ وسقوطهنَّ[3].

وكان ﷺ يقرُّ المزاح بين نسائه، ويتبسّم لذلك:

قالتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: زارتنا سودةُ يوماً، فجلسَ رسولُ الله ﷺ بيني وبينها، إحدى رجليهِ في حجري، والأخرى في حجرها، فعملتُ لها حريرةً [حساء مطبوخ من الدّقيق

(١) رواه البخاري [٥٢١١]، ومسلم [٢٤٤٥].
(٢) رواه البخاري [٦١٦١]، ومسلم [٢٣٢٣].
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١٥/ ٨١].

والدّسم والماء][1]، فقلتُ: كلي، فأبتْ، فقلتُ: والله لتأكلنَّ، أوْ لألطّخنَّ وجهكِ، فأبتْ، فأخذتُ منَ القصعةِ شيئاً، فلطّختُ بهِ وجهها، فضحكَ النّبي ﷺ، فوضع فخذه لها، وقال لسودة: الطخي وجهها، فلطّختْ وجهي، فضحك النّبي ﷺ أيضاً، فإذا عمرُ يقولُ: يا عبدَ الله بنَ عمرَ، يا عبدَ الله بنَ عمرَ، فقالَ لنا رسولُ الله ﷺ: «قوما فاغسلاَ وجوهكما؛ فلاَ أحسبُ عمرَ إلّا داخلاً»[2].

ولو حدثَ مثل هذا في هذا الزمانِ من امرأتين، وزوجها جالسٌ بينهما؛ فربما طلقها جهلاً منه بهديِ النبيِّ ﷺ في معاملة زوجاته، حيثُ كان يداعبهنَّ ويضاحكهنَّ.

وفي هذا الحديثِ: تفاعلُ النبيِّ ﷺ مع جوِّ المرحِ، وعدلُ النبي ﷺ في المرحِ والمباسطةِ.

فمعَ أنّه ﷺ يحبُّ عائشةَ أكثرَ من غيرها، لم يجعلهُ ذلك يميل إليها في الظاهر، بل ساعدَ زوجته الأخرى سودةَ لتلطّخَ وجهَ عائشةَ بالطعام، وحصلَ ما أراده النبي ﷺ، وساد المجلس جوٌّ من المرح والضّحكِ والسّرور.

ومن ملاطفته وفكاهته ﷺ مع زوجاته: حديثُ كلثومٍ بن المصطلق قالَ: كانتْ زينبُ تفلي رسولَ الله ﷺ، وعندهُ امرأةُ عثمانَ بنِ مظعونٍ ونساءٌ منَ المهاجراتِ، وهنَّ يشتكينَ منازلهنَّ أنّهنَّ يخرجنَ منها، ويضيّقُ عليهنَّ فيها[3]، فتكلّمتْ زينبُ، وتركتْ رأسَ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنّكِ لستِ تكلّمينَ بعينيكِ، تكلّمي، واعملي عملكِ**»، فأمرَ رسولُ الله ﷺ يومئذٍ أنْ يورّثَ منَ المهاجرينَ النّساءُ[4].

وفي هذا حسنُ ممازحته ﷺ لزوجته.

---

(١) النهاية [١/ ٩٣١]

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى [٨٩١٧] وأبو بكر الشافعي في الفوائد [١١٢]، وقال العراقي في تخريج الإحياء [٤/ ١٦٨٢]: «إسناده جيد»، وحسنه الألباني في الصحيحة [٣١٣١].

(٣) كانوا إذا ماتَ زوج المرأة أخذ الورثة الدار، وتخرج المرأة منها وهيَ غريبة في دار الغربة، فلا تجد مكاناً آخر. عون المعبود [٨/ ٢٣١]

(٤) رواه أحمد [٢٦٥١٠] وحسنه شعيب الأرناؤوط، وأصل الحديث في سنن أبي داود [٣٠٨٠]، وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٠٨٠].

وكان يستمع لفكاهة وطرائف زوجاته:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قلتُ يا رسولَ الله، أرأيتَ لوْ نزلتَ وادياً، وفيهِ شجرةٌ قدْ أكلَ منها، ووجدتَ شجراً لمْ يؤكل منها، في أيّها كنتَ ترتعُ بعيركَ؟ قالَ: «في الّذي لمْ يرتعْ منها». تعني أنَّ رسولَ الله ﷺ لمْ يتزوّجْ بكراً غيرها[1].

ومن الأمثلة على الدّعابة اللطيفة:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: رجعَ إليَّ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ منْ جنازةٍ بالبقيعِ، وأنا أجدُ صداعاً في رأسي، وأنا أقولُ: وا رأساهْ، قالَ: «**بل أنا وا رأساهْ! ما ضرّكِ لوْ متِّ قبلي، فغسّلتكِ، وكفّنتكِ، ثمَّ صلّيتُ عليكِ، ودفنتكِ؟**»، قلتُ: لكأنّي بكَ والله لوْ فعلتَ ذلكَ، لقدْ رجعتَ إلى بيتي، فأعرستَ فيهِ ببعضِ نسائكَ، فتبسّمَ رسولُ الله ﷺ، ثمَّ بدئَ بوجعهِ الّذي ماتَ فيهِ[2].

وبلطفهِ يرعى مشاعرها ... في كلِّ نائبةٍ يواسيها
متجمّلاً منْ أجلها عطراً ... إنَّ الّذي يرضيهِ يرضيها
وعلى الّذي هويتْ يتابعها ... فيما يحلُّ لها، ويعطيها
وعلى جلالتهِ يسابقها ... وإذا تجاريهِ يجاريها
إنَّ السّماحةَ في شريعتهِ ... واليسر أصلٌ كامنٌ فيها

* * *

(١) رواه البخاري [٥٠٧٧].

(٢) رواه أحمد [٢٤٧٢٠]، وابن ماجة [١٤٦٥]، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة [١٤٦٥]، وأصله في البخاري [٥٦٦٦].

الجانب الثاني: تربية النبي ﷺ لنسائه؛ ليكنَّ قدوةً لنساءِ المؤمنين:

ومع ذلك المزاح، وتلك المداعبات، والملاطفات كان رسول الله ﷺ حريصاً على تربية نسائه؛ ليكنَّ المثلَ الأعلى لغيرهن، منطلقاً في ذلك من مسئوليّته عليهن وهو الزوج، وهو القائل: «**إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمّا استرعاهُ، أحفظَ ذلكَ أمْ ضيّعَ؟ حتّى يسألَ الرّجلُ على أهلِ بيتِهِ**»(١).

وعنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «**ألا كلّكمْ راعٍ، وكلّكمْ مسئولٌ عنْ رعيّتِهِ، فالأميرُ الّذي على النّاسِ راعٍ وهوَ مسئولٌ عنْ رعيّتِهِ، والرّجلُ راعٍ على أهلِ بيتِهِ وهوَ مسئولٌ عنهمْ**»(٢).

فالرجلُ مسئولٌ عن تعليمِ زوجته، وإرشادها، وتوجيهها التوجيه الصحيح، وما شاعتِ المنكراتُ في حياة كثيرٍ من الزوجاتِ إلا بسبب تفريطِ الرجالِ في تعليمهنِ أمورَ دينهنَّ، وتقصيرهم في توفيتهنّ حقوقهنّ.

كان ﷺ يربّي زوجاته على العبادةِ والتقرّب إلى الله بالنوافل:

عنْ أم سلمةَ زوجَ النّبيِّ ﷺ قالتْ: استيقظَ رسولُ الله ﷺ ليلةً فزعاً يقولُ: «**سبحانَ الله ماذا أنزلَ اللهُ منْ الخزائنِ، وماذا أنزلَ منَ الفتنِ، منْ يوقظُ صواحبَ الحجراتِ**(٣)**؛ لكيْ يصلّينَ، ربَّ كاسيةٍ في الدّنيا عاريةٍ في الآخرةِ**»(٤).

فلما اطّلعَ رسولُ الله ﷺ على ما فتحه الله تعالى في يومٍ واحدٍ من خزائنِ الثوابِ، وما أنزله من الفتنِ؛ قام من نومه فزعاً من دهشته؛ لكثرةِ الخيرِ والشرِّ.

وتعجّبَ من غفلةِ البشرِ عما يحدثُ حولهم من فتحِ خزائنِ الخيرِ، وفتحِ أبوابِ الفتنِ مما يدعو إلى الرغبةِ والرهبةِ، والجدِّ في العبادةِ؛ ولذلكَ أمرَ بإيقاظِ زوجاته للصلاةِ.

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى [٩١٧٤] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة [١٦٣٦].

(٢) رواه البخاري [٨٩٣]، ومسلم [١٨٢٩].

(٣) يريدُ أزواجهُ.

(٤) رواه البخاري [٧٠٦٩].

وأشـارَ ﷺ بذلكَ إلى أنه ينبغي لهنَّ أنْ لا يتغافلنَ عنِ العبادة، وأنْ لا يعتمدنَ على مجرّد كونهنَّ أزواجَ النّبيّ ﷺ.

وفي الحديث: إيقاظُ الرّجلِ أهلهُ باللّيلِ للعبادةِ لا سيّما عند آيةٍ تحدثُ.

وإذا دخلَ العشرُ الأواخرُ من رمضانَ أيقظهنَّ للقيام والعبادة:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: «كانَ النّبيُّ ﷺ إذا دخلَ العشرُ شدَّ مئزرهُ، وأحيا ليلهُ، وأيقظَ أهلهُ»(١).

وعـنْ عليٍّ بـن أبي طلـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يوقـظُ أهلهُ في العـشرِ الأواخرِ منْ رمضانَ»(٢).

«فـكان النبـيُّ ﷺ يوقظُ أهلـه في العشرِ الأواخرِ مـن رمضانَ للصلاةِ بالليـلِ، والذّكرِ، والدّعاءِ، وأما في سائر السنة فكانَ إيقاظه لهم للوترِ خاصّةً؛ فإنه من آكدُ السّننِ الرواتبِ»(٣).

فعنْ عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسـولُ الله ﷺ يصلّي منَ اللّيلِ، فإذا أوترَ قالَ: «**قومي، فأوتري يا عائشةُ**»(٤).

ويربّيهنَّ ﷺ على الإخلاص لله في العبادة:

عـنْ عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالـتْ: كانَ رسـولُ الله ﷺ إذا أرادَ أنْ يعتكـفَ صـلّى الصّبـحَ، ثمَّ دخـلَ في المـكانِ الّذي يريـدُ أنْ يعتكفَ فيهِ، فـأرادَ أنْ يعتكفَ العشرَ الأواخـرَ منْ رمضانَ فأمرَ فضربَ لهُ خباءٌ، فاسـتأذنتهُ عائشـةُ أنْ تعتكفَ، فأذنَ لها فضربتْ فيهِ قبّةً، فسمعتْ بها حفصةُ، فضربتْ قبّةً، وسـمعتْ زينبُ بها فضربتْ قبّةً أخرى، فلمّا انصرفَ رسـولُ الله ﷺ منَ الغداةِ أبصرَ أربعَ قبابٍ، فقالَ: «**ما هذا؟!**»، فأخبرَ خبرهنَّ، فقالَ: «**آلبرَّ تردنَ**».

وفي رواية: «**ما حملهنَّ على هذا؟ آلبرُّ؟!**»، فأمرَ بخبائهِ فقوّضَ [أي: قلع وأزيلَ]، وقال:

---

(١) رواه البخاري [٢٠٢٤]، ومسلم [١١٧٤].

(٢) رواه الترمذي [٧٢٥]، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي [٢/ ٢٩٦]

(٣) فتح الباري [٦/ ٢٥١] لابن رجب.

(٤) رواه البخاري [٥١٢]، ومسلم [٧٤٤].

«**انزعوها فلا أراها**»، فنزعتْ، فلمْ يعتكفْ في رمضانَ، واعتكفَ في العشرِ الأوّلِ منْ شوّالٍ[١].

فقالَ ﷺ هذا الكلام إنكاراً لفعلهنَّ، وسببُ إنكاره أنّهُ خافَ أنْ يكنَّ غيرَ مخلصاتٍ في الاعتكاف، بل أردنَ القرب منهُ؛ لغيرتهنَّ عليهِ.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكأنّهُ ﷺ خشيَ أنْ يكون الحاملُ لهنَّ على ذلكَ المباهاةَ والتّنافسَ النّاشئَ عنِ الغيرة؛ حرصاً على القرب منهُ خاصّةً، فيخرج الاعتكاف عنْ موضوعه»[٢].

وكان يعلّمُ زوجته الاستعاذةَ من الشرور:

فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، ثمَّ أشارَ إلى القمرِ، فقالَ: «**يا عائشةُ استعيذي باللهِ منْ شرِّ هذا، فإنَّ هذا هوَ الغاسقُ إذا وقبَ**»[٣].

الغاسق هو: الظلمة، إذا وقب: غاب، «وأكثر المفسرين أن الغاسق هو الليل»[٤].

وإنّما أمرَ بالتّعوّذِ منَ اللّيلِ؛ لأنَّ الآفاتِ تنتشرُ فيه.

وكون الغاسق هو الليل لا يعارض ما في الحديث من أنه القمر؛ لأن القمرَ آيةُ الليل، ولا يوجدُ له سلطان إلا فيه[٥].

وفي الحديثِ: بيانُ اهتمامِ النبيِّ ﷺ بتعليم زوجته، حيثُ أخذَ بيدها، ثم أشارَ إلى مراده، ثم أمرها بالفعل، وبين لها السبب.

ويعلّمهنَّ الأذكارَ النافعةَ كأذكار الصباح والمساء:

عنْ جويريةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ النّبيَّ ﷺ خرجَ منْ عندها بكرةً حينَ صلّى الصّبحَ، ثمَّ رجعَ بعدَ

---

(١) رواه البخاري [٢٠٣٣]، ومسلم [١١٧٣].

(٢) فتح الباري [٤/ ٢٧٦].

(٣) رواه الترمذي [٣٢٨٨]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٧٩١٦].

(٤) بدائع الفوائد [٢/ ٤٤٢].

(٥) تفسير ابن كثير [٨ / ٥٣٦].

أنْ أضحى وهيَ جالسةٌ، فقالَ: «**ما زلتِ على الحالِ الّتي فارقتكِ عليها؟**»، قالتْ: نعمْ، فقالَ: «**لقدْ قلتُ بعدكِ أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مرّاتٍ، لوْ وزنتْ بما قلتِ منذُ اليومِ لوزنتهنَّ: سبحانَ الله وبحمده، عددَ خلقهِ، ورضا نفسهِ، وزنةَ عرشهِ، ومدادَ كلماتهِ**»[١].

أي: لو قوبلتِ الكلماتُ الأربعُ التي قلتها ثلاثَ مرّاتٍ، بما قلتِ من أوّلِ نهاركِ من الأذكارِ؛ لساوتهنَّ[٢].

فقدْ يكون بعضُ الأذكار أفضلَ منْ بعضٍ؛ لعمومها، وشمولها، واشتمالها على جميعِ الأوصافِ الذّاتيّةِ والفعليّةِ، فيكونُ القليلُ منْ هذا النّوعِ أفضلَ منَ الكثير منْ غيرهِ[٣].

فدلّها وأرشدها تخفيفاً لها وتكثيراً لأجورها، من دون تعبٍ ولا نصبٍ.

وكان يرشدهنَّ للأفضلِ والأيسرِ في العبادة:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّها قالتْ: كنتُ أحبُّ أنْ أدخلَ البيتَ، فأصلّيَ فيهِ، فأخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، فأدخلني في الحجرِ، فقالَ: «**صلّي في الحجرِ إذا أردتِ دخولَ البيتِ؛ فإنّما هوَ قطعةٌ منْ البيتِ**»[٤].

في هذا الحديثِ: كيفَ أنَّ النبيَّ ﷺ أخذَ بيدِ زوجته، ثم بيّنَ لها أن الحجرَ من البيتِ، فمن أرادَ أن يصلّيَ داخلَ الكعبةِ؛ فليصلِّ في الحجرِ.

وكان يأمرُ أهله بالاقتصاد في العبادة وعدم التشديد على النفس:

فعنْ أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: دخلَ رسولُ الله ﷺ المسجدَ، فإذا حبلٌ ممدودٌ بينَ السّاريتينِ، فقالَ: «**ما هذا الحبلُ؟**»، قالوا: هذا حبلٌ لزينبَ، تصلّي، فإذا كسلتْ، أوْ فترتْ؛ أمسكتْ بهِ، فقالَ: «**حلّوهُ، ليصلِّ أحدكمْ نشاطهُ، فإذا كسلَ أوْ فترَ فليقعدْ**»[٥].

---

(١) رواه مسلم [٢٧٢٦].

(٢) شرح أبي داود [٥/ ٤١٤] للعيني.

(٣) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي [٣/ ٧٨].

(٤) رواه الترمذي [٨٠٢]، والنسائي [٢٩١٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٧٩٢].

(٥) رواه البخاري [١١٥٠]، ومسلم [٧٨٤].

قال النووي: «فيهِ: الحثُّ على الاقتصاد في العبادة، والنّهيُ عنِ التّعمّقِ، والأمرُ بالإقبالِ عليها بنشاطٍ، وأنّهُ إذا فترَ فليقعدْ حتّى يذهب الفتور»[١].

ولّما ذكرت له عائشة حال امرأة تقوم الليل ولا تنام، كره ذلك:

عن عروةُ بنُ الزّبيرِ أنَّ عائشةَ زوجَ النّبيِّ ﷺ أخبرتهُ أنَّ الحولاءَ بنتَ تويتٍ مرّتْ بها وعندها رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: هذهِ الحولاءُ بنتُ تويتٍ وزعموا أنّها لا تنامُ اللّيلَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تنامُ اللّيلَ؟! خذوا منَ العملِ ما تطيقونَ، فوَ الله لا يسأمُ اللهُ حتّى تسأموا**»[٢].

أرادَ ﷺ بقولهِ: «لا تنام اللّيل» الإنكار عليها، وكراهة فعلها وتشديدها على نفسها[٣].

وكان يحثّهن على المداومة على الأعمال الصالحة، وإن كانت قليلة:

عنْ عائشةَ رَضِيَاللَّهُعَنهَا قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أحبُّ الأعمالِ إلى الله تعالى أدومها وإنْ قلَّ**».

قالَ القاسمُ بنُ محمّدٍ: «وكانتْ عائشةُ إذا عملتِ العملَ لزمتهُ»[٤].

قالَ ابن الجوزيّ: «إنّما أحبَّ الدّائم لمعنيينِ:

أحدهما: أنَّ التّارك للعملِ بعد الدّخول فيهِ كالمعرضِ عنه.

والثّاني: أنَّ مداوم الخير ملازم الخدمة، وليسَ منْ لازمَ الباب في كلّ يوم وقتاً ما، كمنْ لازمَ يوماً كاملاً، ثمَّ انقطعَ[٥].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [٦/ ٧٣].

(٢) رواه البخاري [٤٣]، ومسلم [٧٨٥]، واللفظ له.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [٦/ ٧٣].

(٤) رواه البخاري [٦٤٦٥]، ومسلم [٧٨٣]، واللفظ له.

(٥) فتح الباري [١/ ١٠٣].

وكان يعظُ زوجاته ويحثّهنَّ على الصدقةِ والإنفاق في الخير:

فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لها: «**يا عائشةُ استتري منَ النّارِ ولوْ بشقِّ تمرةٍ، فإنّها تسدُّ منَ الجائعِ مسدّها منَ الشّبعانِ**»(١).

شقُّ التّمرة: نصفها وجانبها، والمعنى: ولوْ بشيءٍ يسيرٍ منها، أوْ منْ غيرها.

فرسولُ الله ﷺ يحثُّ عائشةَ على أن تجعلَ بينها، وبين النار ستراً منَ الصّدقةِ، وعملِ البرِّ، ولوْ بالشيءِ اليسيرِ، فاليسيرُ منَ الصّدقةِ يسترُ المتصدّق منَ النّارِ.

وعنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دخلَ عليَّ سائلٌ مرّةً، وعندي رسولُ الله ﷺ، فأمرتُ لهُ بشيءٍ، ثمَّ دعوتُ بهِ، فنظرتُ إليهِ(٢)، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أما تريدينَ أنْ لا يدخلَ بيتكِ شيءٌ، ولا يخرجَ إلّا بعلمكِ**»، قلتُ: نعمْ، قالَ: «**مهلاً يا عائشةُ، لا تحصي؛ فيحصيَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليكِ**»(٣).

«والإحصاءُ: معرفةُ قدرِ الشّيءِ وزناً أوْ عدداً، والمعنى: النّهي عنْ منع الصّدقة؛ خشيةَ النّفادِ، فإنَّ ذلكَ أعظمُ الأسبابِ لقطعِ مادّةِ البركةِ؛ لأنَّ اللهَ يثيبُ على العطاءِ بغيرِ حساب، ومنْ لا يحاسبُ عندَ الجزاءِ؛ لا يحسبُ عليهِ عندَ العطاءِ، ومنْ علمَ أنَّ اللهَ يرزقهُ منْ حيثُ لا يحتسبُ فحقّهُ أنْ يعطيَ ولا يحسبَ»(٤).

وعندما ذبحَ أهلُ النبيِّ ﷺ شاةً، سألَ النّبيُّ ﷺ: «**ما بقيَ منها؟**»، قالت عائشة: يا رسولَ الله ما بقيَ إلّا كتفها، فقالَ ﷺ: «**كلّها قدْ بقيَ، إلّا كتفها**»(٥).

أيْ: ما تصدّقت بهِ فهوَ باقٍ، وما بقيَ عندك فهوَ غيرُ باقٍ، إشارةً إلى قولهِ تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦](٦).

---

(١) رواه أحمد [٢٣٩٨٠]. وحسنه ابن حجر في فتح الباري [٣/ ٣٣٤]، والألباني في صحيح الترغيب والترهيب [٨٦٥].

(٢) أي: نظرتُ في الشيءِ الذي تصدّقتْ منه؛ لتنظرَ كم نقص منه.

(٣) رواه أبو داود [١٧٠٠]، والنسائي [٢٥٤٩] واللفظ له، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع [٧٩٣٢].

(٤) فتح الباري [٣/ ٣٠٠] لابن حجر.

(٥) رواه الترمذي [٢٣٩٤]، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٥٤٤].

(٦) تحفة الأحوذي [٧/ ١٤٢].

وبيّنَ لهنَّ أن أكثرهنَّ تصدّقاً أسرعهنَّ لحاقاً به:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً**»، قالتْ: فكنَّ يتطاولنَ أيّتهنَّ أطولُ يداً، قالتْ: فكانتْ أطولنا يداً زينبُ؛ لأنّها كانتْ تعملُ بيدها، وتصدّقُ[1].

«ومعنى الحديث: أنّهنَّ ظنَّ أنَّ المرادَ بطولِ اليدِ طولُ اليد الحقيقيّةِ، وهيَ الجارحة، فكنَّ يذرعنَ أيديهنَّ بقصبةٍ، فكانتْ سودةُ أطولهنَّ جارحةً، وكانتْ زينبُ أطولهنَّ يداً في الصّدقةِ وفعل الخيرِ، فماتتْ زينبُ أوّلهنَّ، فعلموا أنَّ المرادَ طولُ اليدِ في الصّدقةِ والجودِ»[2].

فهذا الحديثَ تضمّنَ أنَّ الإيثارَ والاستكثارَ منَ الصّدقةِ في زمنِ القدرةِ على العملِ سببٌ للّحاقِ بالنّبيِّ ﷺ، وذلكَ الغايةُ في الفضيلةِ[3].

وكان يربّيهنَّ على البرّ والصلة:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: استأذنَ عليَّ أفلحُ أخو أبي القعيسِ بعدما أنزلَ الحجابُ، فقلتُ: لا آذنُ لهُ حتّى أستأذنَ فيهِ النّبيَّ ﷺ، فإنَّ أخاهُ أبا القعيسِ ليسَ هوَ أرضعني، ولكنْ أرضعتني امرأةُ أبي القعيسِ، فدخلَ عليَّ النّبيُّ ﷺ، فقلتُ لهُ: يا رسولَ الله إنَّ أفلحَ أخا أبي القعيسِ استأذنَ، فأبيتُ أنْ آذنَ لهُ حتّى أستأذنكَ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**وما منعكِ أنْ تأذني لعمّكِ؟**»، قلتُ: يا رسولَ الله إنَّ الرّجلَ ليسَ هوَ أرضعني، ولكنْ أرضعتني امرأةُ أبي القعيسِ، فقالَ: «ائذني لهُ؛ فإنّهُ عمّكِ، تربتْ يمينكِ»[4].

وكان ينهى زوجاته عن الكلام بغير علم:

كان من هديه ﷺ تحذيرهنَّ من القولِ على الله بغيرِ علمٍ، حتى لا تستعجلَ الزوجةُ في الفتوى، أو تتسرّعَ في الحكمِ.

---

(١) رواه البخاري [١٤٢٠]، ومسلم [٢٤٥٢].

(٢) قاله النووي في شرح صحيح مسلم [١٦/ ٨].

(٣) فتح الباري [٣/ ٢٨٦].

(٤) رواه البخاري [٤٧٩٦]، ومسلم [١٤٤٥].

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دعيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازةِ صبي منَ الأنصارِ، فقلتُ: يا رسولَ الله طوبى لهذا عصفورٌ منْ عصافيرِ الجنّةِ، لمْ يعملِ السّوءَ، ولمْ يدركهُ، قالَ: «أوَ غيرَ ذلكَ يا عائشةُ، إنَّ اللهَ خلقَ للجنّةِ أهلاً، خلقهمْ لها وهمْ في أصلابِ آبائهمْ، وخلقَ للنّارِ أهلاً، خلقهمْ لها وهمْ في أصلابِ آبائهمْ»(١).

قال النووي: «أجمعَ منْ يعتدُّ بهِ منْ علماءِ المسلمينَ على أنَّ منْ ماتَ منْ أطفال المسلمينَ فهوَ منْ أهل الجنّة؛ لأنّهُ ليسَ مكلّفاً.

وأجابوا عن حديث عائشة هذا بأنّهُ نهاها عنْ المسارعة إلى القطع منْ غير أنْ يكون عندها دليل قاطع»(٢).

وكان يأمر أهله بالتقوى ومكارم الأخلاق:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قالَ لي النبي ﷺ: «**يا عائشةُ عليكِ بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ والرّفقِ؛ فإنَّ الرّفقَ لمْ يكُ في شيءٍ قطُّ إلّا زانهُ، ولمْ ينزعْ منْ شيءٍ قطُّ إلّا شانهُ**»(٣).

«**إلّا زانهُ**»: أيْ زيّنهُ وكمّلهُ «**إلّا شانهُ**»: أيْ عيّبهُ ونقصهُ(٤).

وكان يربّيهنَّ على الرفق والحلم والأناة:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لها: «**يا عائشةُ، ارفقي؛ فإنَّ اللهَ إذا أرادَ بأهلِ بيتٍ خيراً؛ دلّهمْ على بابِ الرّفقِ**»(٥).

وكان يربّيهنَّ على حسنِ القولِ، وينهاهنَّ عن الفحشِ في الكلام حتى مع غيرِ المسلمين:

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: استأذنَ رهطٌ منَ اليهودِ على رسولِ الله ﷺ، فقالوا: السّامُ

---

(١) رواه مسلم [٢٦٦٢].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٦/ ٢٠٧].

(٣) رواه أحمد [٢٣٧٨٦]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٧٩٢٧]، وهو في مسلم [٢٥٩٤] مختصراً.

(٤) عون المعبود [١٣/ ١١٣].

(٥) رواه أحمد [٢٣٩٠٦]، وصححه الألباني في الصحيحة برقم [٥٢٣].

عليكـمْ[١]، فقـالَ: «**وعليكـمْ**»، فقلت: السّـامُ عليكمْ ولعنكـمُ اللهُ وغضبَ عليكـمْ، فقالَ رسـولُ الله ﷺ: «**مهـلاً يا عائشـةُ، عليكِ بالرّفقِ، وإيّـاكِ والعنفَ، أوِ الفحـشَ**»، قالت: أوَ لم تسـمعْ مـا قالـوا؟ قال: «**أوَ لمْ تسـمعي ما قلـتُ؟ رددتُ عليهمْ، فيسـتجابُ لي فيهمْ، ولا يستجابُ لهمْ فيَّ**»[٢].

وفي رواية لمسلم قال: «**مهْ يا عائشة، فإنَّ الله لا يحبّ الفحش والتّفحّش**»[٣].

وكان النبي ﷺ يعلّمُ زوجاتهِ أمورَ العقيدة، ويربّيهن على الخوف من الله تعالى، فإذا ظهر سحاب في السماء، أو أقبلت ريح، دخل وخرج وتغير لونه.

تقـول عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وكانَ إذا رأى غيـماً أوْ ريحـاً؛ عـرفَ ذلكَ في وجهـهِ، فتقول له: يـا رسـولَ الله أرى النّاسَ إذا رأوا الغيـمَ؛ فرحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيهِ المطـرُ، وأراكَ إذا رأيتهُ عرفتُ في وجهكَ الكراهيةَ؟ فقالَ: «**يا عائشةُ، ما يؤمّنني أنْ يكونَ فيهِ عذابٌ، قدْ عذّبَ قومٌ بالرّيحِ، وقدْ رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا**»[٤].

العارض: السحاب المعترض في الأفق.

وكان يبيّن لهنّ ما يقع فيه الناس من المنكرات العقائدية:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: لـمّا اشتكى النّبيُّ ﷺ ذكرتْ بعضُ نسائهِ كنيسةً رأينها بأرضِ الحبشـةِ يقـالُ لها ماريـةُ، وكانتْ أمُّ سـلمةَ وأمُّ حبيبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أتتا أرضَ الحبشـةِ، فذكرتا منْ حسـنها وتصاويرَ فيها، فرفعَ رأسـهُ، فقالَ: «**أولئكِ إذا ماتَ منهمُ الرّجلُ الصّالحُ؛ بنوا على قبرهِ مسجداً، ثمَّ صوّروا فيهِ تلكَ الصّورةَ، أولئكِ شرارُ الخلقِ عندَ الله**»[٥].

وفي هذا: عنايته بالتنبيهِ على الأخطاءِ العقديّة، وتحذيرِ أهله منها.

---

(١) السّامّ: الموتُ.

(٢) رواه البخاري [٢٩٣٥]، ومسلم [٢١٦٥].

(٣) «مهْ»: كلمة زجرٍ عنِ الشيّءِ، والفحشُ هوَ القبيح منَ القولِ والفعلِ.

(٤) رواه البخاري [٤٨٢٩]، ومسلم [٨٩٩].

(٥) رواه البخاري [٤٢٧]، ومسلم [٥٢٨].

وكانَ ﷺ لا يسكتُ عن منكرٍ يراه في بيته، بل يسارعُ إلى إزالته:

فحمايةُ الأهلِ من المنكراتِ من الواجباتِ العظيمةِ على كلِّ زوجٍ، وهو داخلٌ في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دخلَ عليَّ النّبيُّ ﷺ، وفي البيتِ قرامٌ فيهِ صورٌ [القرام هو الستر] فتلوّنَ وجههُ، ثمَّ تناولَ السّترَ، فهتكهُ، وقالَ: «إنَّ منْ أشدِّ النّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ الّذينَ يصوّرونَ هذهِ الصّورَ»[(١)].

فأنكرَ عليها بالفعلِ والقولِ.

وكان ينكرُ ما قد يصدر منهنَّ من قول فيه تحقير للناس:

قالتْ عائشة: وحكيتُ لهُ إنساناً[(٢)]، فقالَ: «ما أحبُّ أنّي حكيتُ إنساناً وأنَّ لي كذا وكذا»[(٣)].

أيْ: ما يسرّني بأنْ أفعل مثل فعله أوْ أقول مثل قوله على وجه التّنقيص، ولوْ أعطيت كذا وكذا منْ الدّنيا، أيْ: شيئاً كثيراً على ذلكَ[(٤)].

قالَ النّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنَ الغيبةِ المحرّمةِ المحاكاةُ، بأنْ يمشيَ متعارجاً، أوْ مطأطئَ رأسهِ، أوْ غيرِ ذلكَ منَ الهيئاتِ»[(٥)].

وكان ﷺ يحذّرُ أزواجه من صغائر الذنوب فضلاً عن كبائرها:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «**يا عائشةُ إيّاكِ ومحقّراتِ الأعمالِ** [وفي رواية: **إياك ومحقّرات الذنوب**]؛ **فإنَّ لها منَ الله طالباً**»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري [٦١٠٩].

(٢) أيْ: فعلت مثل فعله.

(٣) رواه أبو داود [٤٨٧٥]، والترمذي [٢٥٠٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٥٥١٥].

(٤) عون المعبود [١٣/ ١٥١].

(٥) تحفة الأحوذي [٧/ ١٧٦].

(٦) رواه ابن ماجة [٤٢٤٣]، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة [٣٤٢١].

«**محقّرات الأعمال**»: هي الذنوب التي يحتقرها فاعلها، ولا يبالي بها.

«**طالباً**» أيْ: مكلّفاً، فعرضَ عليهِ أنْ يطلبها، فيكتبها فهيَ عند الله تعالى عظيمة حيثُ خصَّ لأجلها ملكاً[١].

وكان نساءُ النبيِّ ﷺ يراجعنه في بعض المسائل المشكلة:

فعن ابن أبي مليكةَ أنَّ عائشةَ كانتْ لا تسمعُ شيئاً لا تعرفهُ إلّا راجعتْ فيهِ حتّى تعرفهُ، وأنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ: «منْ حوسبَ عذّبَ»، قالتْ عائشةُ: فقلتُ: أوليسَ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، فقالَ: «**إنّما ذلكِ العرضُ، ولكنْ منْ نوقشَ الحسابَ يهلكْ**»[٢].

وكان ﷺ يغارُ على نسائه:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ يدخلُ على أزواجِ النّبيِّ ﷺ مخنّثٌ[٣]، فكانوا يعدّونهُ منْ غيرِ أولي الإربةِ، فدخلَ النّبيُّ ﷺ يوماً وهوَ عندَ بعضِ نسائهِ، وهوَ ينعتُ امرأةً قال: إذا أقبلتْ أقبلتْ بأربعٍ، وإذا أدبرتْ أدبرتْ بثمانٍ[٤]، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**ألا أرى هذا يعرفُ ما هاهنا، لا يدخلنَّ عليكنَّ**»، قالتْ: فحجبوهُ[٥].

ودخول هذا المخنّثِ أوّلاً على أمّهاتِ المؤمنينَ كان سببه أنّهمْ كانوا يعتقدونهُ منْ غير أولي الإربة، وأنّهُ مباحٌ دخولهُ عليهنَّ، فلمّا سمعَ منهُ هذا الكلامَ؛ علمَ أنّهُ منْ أولي الإربة، فمنعهُ ﷺ من الدّخولِ.

وإنّما حجبهُ عنِ الدّخول إلى النّساءِ لمّا سمعهُ يصف المرأة بهذهِ الصّفة الّتي تهيّج قلوبَ الرّجالِ، فمنعهُ؛ لئلّا يصفَ الأزواجَ للنّاسِ؛ فيسقطَ معنى الحجاب.

---

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجة [٨/ ٥٩].

(٢) رواه البخاري [١٠٣]، ومسلم [٢٨٧٦].

(٣) المخنّث: وهوَ الّذي يشبه النّساء في أخلاقه وكلامه وحركاته، وتارة يكون هذا خلقه منَ الأصل، وتارة بتكلّفٍ.

(٤) ومعناهُ أنَّ لها أربع عكن تقبل بهنَّ، منْ كلّ ناحية ثنتانِ، ولكلٍّ واحدة طرفانِ، فإذا أدبرتْ صارتْ الأطراف ثمانية.

(٥) رواه البخاري [٤٣٢٤]، ومسلم [٢١٨١].

ويستفاد منهُ حجبُ النّساءِ عمّنْ يفطنُ لمحاسنهنَّ، وهذا الحديثُ أصلٌ في إبعادٍ منْ يسترابُ بهِ في أمر منَ الأمور(١).

هكذا كانَ النبيُّ ﷺ يغارُ على نسائه، بخلافِ ما يحاولُ بعضُ المتحلّلين فعله اليومَ في مجتمعاتنا من إضعافِ الغيرةِ، ومحوها من النفوسِ، فتجدُ الرجلَ منهم لا يكترثُ إن جالستْ زوجته، أو أخته، أو ابنته رجلاً أجنبيّاً عنها.

ومن منهجه ﷺ إحسانُ الظّنِّ بهنِّ وعدم تخوينهن:

عنْ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ النّبيُّ ﷺ لا يطرقُ أهلهُ، كانَ لا يدخلُ إلّا غدوةً أوْ عشيّةً(٢).

«لا يطرق أهله» أيْ: لا يدخل عليهمْ ليلاً إذا قدمَ منْ سفر، والطّروق هوَ الإتيان في اللّيل، وكلّ آتٍ في اللّيل فهوَ طارق(٣).

بل ونهى الرجال عن ذلك:

فعنْ جابرِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: نهى رسولُ الله ﷺ أنْ يطرقَ الرّجلُ أهلهُ ليلاً، يتخوّنهمْ أوْ يلتمسُ عثراتهمْ(٤).

ومعنى «**يتخوّنهمْ**»: يظنّ خيانتهمْ، ويكشفُ أستارهمْ، ويكشفُ هل خانوا أمْ لا؟

فيكره لمنْ طالَ سفره أنْ يقدم على امرأته ليلاً بغتةً، فأمّا منْ كانَ سفره قريباً تتوقّع امرأته إتيانه ليلاً فلا بأسَ.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديث: الحثُّ على التّوادِّ والتّحابِّ خصوصاً بينَ الزّوجينِ؛ لأنَّ الشّارعَ راعى ذلكَ بين الزّوجينِ معَ اطّلاع كلٍّ منهما على ما جرتِ العادةُ بسترهِ حتّى إنَّ كلَّ واحدٍ منهما لا يخفى عنهُ منْ عيوب الآخرِ شيءٌ في الغالبِ، ومعَ ذلكَ فنهى عنِ الطّروق؛ لئلّا يطّلعَ على ما تنفرُ نفسه عنهُ؛ فيكونُ مراعاةُ ذلكَ في غيرِ الزّوجينِ بطريقِ الأولى»(٥).

---

(١) فتح الباري [٩/ ٣٣٦].

(٢) رواه البخاري [١٨٠٠]، ومسلم [١٩٢٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١٣/ ٧١].

(٤) رواه البخاري [١٨٠١]، ومسلم [٧١٥].

(٥) فتح الباري [٩/ ٣٤١].

ومن حكم عدمِ طرقِ الأهلِ ليلاً، أو فجأةً: أن تستعدَّ المرأةُ لقدوم زوجها.

عنْ جابرِ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**إذا قدمَ أحدكمْ ليلاً، فلا يأتينَّ أهلهُ طروقاً؛ حتّى تستحدَّ المغيبةُ، وتمتشطَ الشّعثةُ**»(١).

«**المغيبة**»: الّتي غابَ زوجها، «**تستحدَّ**»: أيْ: تزيل شعر عانتها.

وهذا الحكمُ خاصٌّ بمن يكون في سفرٍ، ويطيلُ الغيبةَ كما جاء في لفظ آخر: «**إذا أطالَ أحدكمْ الغيبة، فلا يطرق أهله ليلاً**».

«فالتّقييد فيهِ بطولِ الغيبة يشيرُ إلى أنَّ علّةَ النّهي إنّما توجدُ حينئذٍ، فالحكمُ يدورُ معَ علّته وجوداً وعدماً.

فلـمّا كانَ الّـذي يخرج لحاجتهِ مثلاً نهاراً ويرجع ليلاً لا يتأتّـى لهُ ما يحذر منْ الّذي يطيل الغيبـة كانَ طـول الغيبة مظنّة الأمن منْ الهجوم، فيقع الّـذي يهجم بعد طول الغيبة غالباً ما يكـره، إمّـا أنْ يجد أهله على غير أهبة مـنْ التّنظّف والتّزيّن المطلوب مـنْ المرأة فيكون ذلكَ سبب النّفرة بينهما»(٢).

وأما منْ أعلم أهله بوصولهِ وأنّهُ يقدم في وقت كذا مثلاً فلا يتناولهُ هذا النّهي.

وكان ﷺ حكيماً في تعامله مع غيرة نسائه:

فإن غيرةَ المرأةِ على زوجها هي طبيعةٌ من طبائعِ الأنوثةِ التي فطرتْ عليها.

وفي بعضِ الآثارِ: «**إنَّ الله كتبَ الغيرة على النّساء**»(٣).

فالغيرةُ جزءٌ من طبيعةِ المرأةِ وخلقتها، وكان نساءُ النبيِّ ﷺ يغرنَ عليه.

عـن عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسـولَ الله ﷺ خرجَ منْ عندها ليلاً، قالـتْ: فغرتُ عليهِ [أي:

---

(١) رواه البخاري [٥٢٤٦]، ومسلم [٧١٥].

(٢) فتح الباري [٩/ ٣٤٠].

(٣) وقـد رواه الطـبراني [١٠٠٤٠]، وغـيره عـن ابن مسـعود مرفوعاً، ولكنـه ضعيف، ضعّفـه الألباني في ضعيف الجامع [١٦٢٦].

اضطربت أفعالي وتغيرت أحوالي]، فجاءَ فرأى ما أصنعُ، فقالَ: «**ما لكِ يا عائشةُ، أغرتِ؟**»، فقلتُ: وما لي لا يغارُ مثلي على مثلكَ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**أقدْ جاءكِ شيطانكِ؟**»[١]، قالتْ: يا رسولَ الله أوَ معيَ شيطانٌ؟ قالَ: «**نعمْ**»، قلتُ: ومعَ كلِّ إنسانٍ؟ قالَ: «**نعمْ**»، قلتُ: ومعكَ يا رسولَ الله؟ قالَ: «**نعمْ، ولكنْ ربّي أعانني عليهِ حتّى أسلمَ**[٢]»[٣].

وفي قصةٍ أخرى نرى أن الغيرة تدفع أم المؤمنين عائشةَ إلى أن تمشي وراءَ النبيِّ ﷺ؛ لترى أين يذهبُ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: لمّا كانتْ ليلتي الّتي كانَ النّبيُّ ﷺ فيها عندي، انقلبَ فوضعَ رداءهُ، وخلعَ نعليهِ، فوضعهما عندَ رجليهِ، وبسطَ طرفَ إزارهِ على فراشهِ فاضطجعَ، فلمْ يلبثْ إلّا ريثما ظنَّ أنْ قدْ رقدتُ، فأخذَ رداءهُ رويداً، وانتعلَ رويداً، وفتحَ البابَ فخرجَ، ثمَّ أجافهُ رويداً[٤]، فجعلتُ درعي في رأسي، واختمرتُ، وتقنّعتُ إزاري، ثمَّ انطلقتُ على إثرهِ، حتّى جاءَ البقيعَ، فقامَ فأطالَ القيامَ، ثمَّ رفعَ يديهِ ثلاثَ مرّاتٍ، ثمَّ انحرفَ فانحرفتُ، فأسرعَ فأسرعتُ، فهرولَ فهرولتُ، فأحضرَ فأحضرتُ [الإحضار: العدوُ]، فسبقتهُ، فدخلتُ، فليسَ إلّا أنْ اضطجعتُ، فدخلَ فقالَ: «**ما لكِ يا عائشُ حشيا رابيةً؟**»[٥]، قلتُ: لا شيءَ، قالَ: «**لتخبريني، أوْ ليخبرنيّ اللّطيفُ الخبيرُ**»، قلتُ: يا رسولَ الله بأبي أنتَ وأمّي، فأخبرتهُ، قالَ: «**فأنتِ السّوادُ الّذي رأيتُ أمامي؟**»، قلتُ: نعمْ، فلهدني في صدري لهدةً أوجعتني[٦]، ثمَّ قالَ: «**أظننتِ أنْ يحيفَ اللهُ عليكِ ورسولهُ؟**»[٧]، فإنَّ جبريلَ أتاني حينَ رأيتِ، فناداني، فأجبتهُ، ولمْ يكنْ يدخلُ عليكِ، وقدْ وضعتِ ثيابكِ، وظننتُ أنْ قدْ رقدتِ، فكرهتُ أنْ أوقظكِ، وخشيتُ أنْ تستوحشي، فقالَ: إنَّ ربّكَ يأمركَ أنْ تأتيَ

---

(١) أي: فأوقعَ عليك أنيّ قدْ ذهبت إلى بعض أزواجي فأنتِ لذلكَ متحيرّة متفتّشة عنّي.

(٢) «فأسلمَ» على صيغة الماضي أي: فصارَ مسلمًا، فلا يدلّني على سوءٍ، أوْ على صيغة المضارع أيْ: فأنا سالمٌ منْ شّرهِ. حاشية السندي على النسائي [٧/ ٧٣].

(٣) رواه مسلم [٢٨١٥].

(٤) أيْ: قليلًا لطيفاً لئلاّ ينبّهها، وإنّما فعلَ ذلكَ ﷺ في خفية؛ لئلاّ يوقظها ويخرج عنها، فربّما لحقها وحشة في انفرادها في ظلمة اللّيل.

(٥) حشيا: أيْ مرتفعة النّفس متواترته كما يحصل للمسرعِ في المشي، رابية: أيْ مرتفعة البطن.

(٦) اللهد: هوَ الدّفع الشّديد في الصّدر، وهذا كانَ تأديباً لها منْ سوءِ الظّنِّ.

(٧) منَ الحيفِ بمعنى الجورِ بأنْ يدخل الرّسولُ في نوبتك على غيرك.

أهلَ البقيعِ فتستغفرَ لهمْ، قلتُ: كيفَ أقولُ لهمْ يا رسولَ الله؟ قالَ: «قولي: السّلامُ على أهلِ الدّيارِ منَ المؤمنينَ والمسلمينَ، ويرحمُ اللهُ المستقدمينَ منّا والمستأخرينَ، وإنّا إنْ شاءَ اللهُ بكمْ للاحقونَ»[١].

فأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالرغم مما كانت تعرفه من مكانتها من قلب رسول الله ﷺ كانت تغارُ عليه من سائر زوجاته، بل كانتْ تغارُ ممن ماتت من نسائه، فكانت تقول: «ما غرتُ على امرأةٍ ما غرتُ على خديجةَ»[٢].

وكان النبيُّ ﷺ حكيماً في معاملته مع نسائه إذا لاحظ عليهن الغيرة، ولم يكن يفعلُ ما يفعله بعض الناسِ اليومَ، فمن الناسِ من إذا لاحظَ على زوجته غيرةً نهرها، وزجرها، ونهاها أن تسألَ عمّا يفعلُ؛ فتكبر بذلك المشكلةُ، وتزدادُ غيرةُ الزوجةِ، ويزدادُ شكّها؛ وذلك نتيجة سوءِ تصرّفِ الزوجِ في مثلِ هذه المواقفِ، وفقدانه للحكمة التي ينبغي أن يتعلّمها من رسول الله ﷺ.

فكان رسولُ الله ﷺ يقابلُ هذه الغيرةَ تارةً بابتسامة، وتارة بتوجيه لين، وتارةً بعتاب إذا مسَّ الأمرُ غيره.

عنْ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ النّبيُّ ﷺ عندَ بعضِ نسائه[٣]، فأرسلتْ إحدى أمّهاتِ المؤمنينَ[٤] بصحفةٍ فيها طعامٌ، فضربتِ الّتي النّبيُّ ﷺ في بيتها يدَ الخادمِ؛ فسقطتْ الصّحفةُ، فانفلقتْ، فجمعَ النّبيُّ ﷺ فلقَ الصّحفةِ، ثمَّ جعلَ يجمعُ فيها الطّعامَ الّذي كانَ في الصّحفةِ، ويقولُ: «**غارتْ أُمُّكُمْ**»، ثمَّ حبسَ الخادمَ حتّى أتيَ بصحفةٍ منْ عندِ الّتي هوَ في بيتها، فدفعَ الصّحفةَ الصّحيحةَ إلى الّتي كسرتْ صحفتها، وأمسكَ المكسورةَ في بيتِ الّتي كسرتْ[٥].

---

(١) رواه مسلم [٩٧٤].

(٢) رواه البخاري [٣٨١٦]، ومسلم [٢٤٣٥].

(٣) وهي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقيل: أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) رواه البخاري [٥٢٣٥].

ففـي هذه القصةِ دلالةٌ على رِفقـه ﷺ بأهله، فلم يَنهرِ التي كسرت القصعةَ، ولم يغضبْ منهـا، ولم يقـل لها كلمةً، بل التمسَ لها العذرَ، وفي نفـس الوقت لم يبخسْ حقَّ التي كسرت قصعتها، وإنما ضمنَ لها مثلها.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيهِ إشـارةٌ إلى عدم مؤاخـذة الغيراء بما يصدر منها؛ لأنّها في تلكَ الحالة يكون عقلها محجوباً بشدّةِ الغضب الّذي أثارتهُ الغيرة»(١).

وينكرُ عليها ما قد يقع منها من لفظ غيرٍ مستساغٍ في حقِّ ضرّتها:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قلتُ للنّبيِّ ﷺ: حسبكَ منْ صفيّةَ كذا وكذا -تعني: قصيرةً- فقالَ ﷺ: «لقدْ قلتِ كلمةً لوْ مزجتْ بماءِ البحرِ؛ لمزجتهُ»(٢).

أيْ: غلبتهُ، وغيّرتهُ، وأفسدتهُ.

والمعنـى: أنَّ هذهِ الغيبةَ لوْ كانتْ ممّا يمزجُ بالبحرِ؛ لغيّرتهُ عنْ حالهِ، معَ كثرتهِ وغزارتهِ، فكيفَ بأعمالٍ نزرةٍ خلطتْ بها؟(٣).

وكان يتركهنَّ؛ ليقتصصنَ من بعضهنَّ:

عنْ عائشـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ نسـاءَ رسـولِ الله ﷺ كنَّ حزبينِ: فحزبٌ فيهِ عائشـةُ، وحفصةُ، وصفيّةُ، وسـودةُ، والحزبُ الآخرُ أمُّ سـلمةَ، وسـائرُ نساءِ رسـولِ الله ﷺ، وكانَ المسلمونَ قـدْ علمـوا حبَّ رسـولِ الله ﷺ عائشـةَ، فإذا كانـتْ عندَ أحدهـمْ هديّةٌ يريـدُ أنْ يهديها إلى رسـولِ الله ﷺ؛ أخّرها حتّى إذا كانَ رسـولُ الله ﷺ في بيتِ عائشةَ بعثَ صاحبُ الهديّةِ بها إلى رسـولِ الله ﷺ في بيتِ عائشـةَ، فكلّمَ حزبُ أمِّ سـلمةَ، فقلنَ لها: كلّمي رسـولَ الله ﷺ يكلّـمُ النّاسَ فيقولُ: منْ أرادَ أنْ يهديَ إلى رسـولِ الله ﷺ هديّـةً؛ فليهدهِ إليهِ حيثُ كانَ منْ بيوتِ نسـائهِ، فكلّمتهُ أمُّ سـلمةَ بما قلنَ، فلمْ يقل لها شـيئاً، فسألنها، فقالتْ: ما قالَ لي شيئاً، فقلـنَ لها: فكلّميهِ، قالتْ: فكلّمتهُ حينَ دارَ إليها أيضاً، فلمْ يقل لها شـيئاً، فسـألنها فقالتْ: مـا قالَ لي شـيئاً، فقلنَ لها: كلّميهِ حتّى يكلّمكِ، فدارَ إليهـا فكلّمتهُ، فقالَ لها: «**لا تؤذيني في**

---

(١) فتح الباري [٩/ ٣٢٥].

(٢) رواه أبو داود [٤٨٧٥]، والترمذي [٢٥٠٢]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٥١٤٠].

(٣) تحفة الأحوذي [٧/ ١٧٧].

عائشةَ؛ فإنَّ الوحيَ لمْ يأتني وأنا في ثوبِ امرأةٍ إلّا عائشة»، فقالتْ: أتوبُ إلى الله منْ أذاكَ يا رسولَ الله، ثمَّ إنّهنَّ دعونَ فاطمةَ بنتَ رسولِ الله ﷺ، فاستأذنتْ عليهِ وهوَ مضطجع معي في مرطي[1]، فقالتْ: يا رسول الله إنَّ أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في بنت ابن أبي قحافة، وأنا ساكتةٌ[2]، فقالَ: **«يا بنيّةُ ألا تحبّينَ ما أحبُّ؟»**، قالتْ: بلى، قالَ: **«فأحبّي هذهِ»**، فقامتْ فاطمة حين سمعت ذلكَ، فرجعتْ إلى أزواجِ النّبيِّ ﷺ فأخبرتهنَّ بالّذي قالتْ، وبالّذي قالَ لها رسولُ الله ﷺ، فقلنَ لها: ما نراكِ أغنيتِ عنّا منْ شيءٍ؛ فارجعي إلى رسولِ الله ﷺ، فقالتْ فاطمةُ: والله لا أكلّمهُ فيها أبداً، فأرسلنَ زينبَ بنتَ جحشٍ، وهيَ الّتي كانتْ تساميني منهنَّ في المنزلةِ عندَ رسولِ الله ﷺ، ولمْ أرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدّينِ منْ زينبَ، وأتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوصلَ للرّحمِ، وأعظمَ صدقةً، وأشدَّ ابتذالاً لنفسها في العملِ الّذي تصدّقُ بهِ، وتقرّبُ بهِ إلى الله تعالى، ما عدا سورةً منْ حدّةٍ كانتْ فيها تسرعُ منها الفيئةَ[3]، فذهبتْ زينبُ حتّى استأذنتْ، ورسول الله ﷺ معَ عائشة في مرطها على الحال الّتي دخلتْ فاطمة وهوَ بها، فقالتْ: يا رسولَ الله إنَّ أزواجكَ أرسلنني إليكَ يسألنكَ العدلَ في ابنةِ أبي قحافةَ، قالتْ: ثمَّ وقعتْ بي؛ فاستطالتْ عليَّ، قالت عائشة: وأنا أرقبُ رسول الله ﷺ، وأرقبُ طرفه هل يأذنُ لي فيها، قالتْ: فلمْ تبرح زينب حتّى عرفت أنَّ رسول الله ﷺ لا يكرهُ أنْ أنتصر، قالَ: فتكلّمتْ عائشةُ تردُّ على زينبَ حتّى أسكتتها، قالتْ عائشة: فلمّا وقعتُ بها لمْ أنشبها حتّى أنحيتُ عليها[4]، فنظرَ النّبيُّ ﷺ إلى عائشةَ وتبسّمَ وقالَ: **«إنّها بنتُ أبي بكرٍ»**[5]. إشارة إلى كمالِ فهمها، ومتانة عقلها حيثُ صبرتْ إلى أنْ ثبتَ أنَّ التّعدّيَ منْ جانب الخصم، ثمَّ أجابتْ بجوابِ إلزام.

---

(١) «المرط»: كساء من خزّ أو صوف أو كتّان. لسان العرب [٧/ ٣٩٩]

(٢) المراد: أنهن يطلبن العدل والمساواة في قضية الهدايا، بحيث لا تكون مخصوصةً بيوم عائشة، والنبي معذور في هذا الأمر؛ لأن إرسال الهدايا ليس من فعله، وإنما هو من فعل الناس، ومن غير اللائق أن يحدّدَ للناس وقت إرسال هداياهم، وإطلاق مثل هذه العبارة في حق النبي فيه نوع تجوّز، ولكنهن معذورات بهذا القول لأن الحامل عليها هو الغيرة.

(٣) ومعنى الكلام: أنها كاملةُ الأوصافِ إلاّ أنَّ فيها شدّة خلق وسرعة غضب تسرعُ منها الفيئة أيْ الرّجوع. شرح النووي [١٥/ ٢٠٦].

(٤) أيْ: بالغت في جوابها وأفحمتها.

(٥) رواه البخاري [٢٥٨١]، ومسلم [٢٤٤٢].

قال ابن حجر رَحِمَهُاللَّهُ: «وفيهِ: تنافسُ الضّرائرِ وتغايرهنَّ على الرّجلِ، وأنَّ الرّجل يسعهُ السّكوت إذا تقاولنَ، ولا يميلُ معَ بعضٍ على بعضٍ»(١).

***

الجانب الثالث: حلول المشكلات في البيت النبوي:

لقد عاش رسول الله ﷺ مع زوجاته الطاهراتِ حياةً سعيدةً طيّبةً، تمثّلُ تطبيقاً عمليّاً لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

ولكن لابدَّ أن تثورَ بعضُ المشكلاتِ في هذا البيتِ الكريمِ، فلا يخلو بيتٌ من مشكلاتٍ حتى بيت النبوّةِ.

فالرسولُ الزوجُ ﷺ يعتبرُ قدوةً لكلِّ زوجٍ؛ لذلك لا بدَّ من حدوث بعض المشكلاتِ في بيتِ النبوّةِ؛ حتى يعلّمنا الله من خلالها هديَ نبيّه ﷺ في التعامل معها.

وهذه المسألةُ مهمّةٌ جدّاً لكل زوجٍ، فليس حدوثُ المشكلاتِ في البيتِ هو الخطرَ؛ لأنه لا يخلو بيتٌ من مشكلاتٍ، ولكن الخطورةَ ألا تعالجَ هذه المشكلاتُ بالحكمةِ والإنصافِ؛ فتتفاقم، ويحدثُ الهجرُ، والطلاقُ.

كيفَ كانَ رسولُ الله ﷺ يتعامل، ويعالج هذه المشكلاتِ؟

لقد مرّتْ ببيتِ النبوةِّ مشكلاتٌ عصيبةٌ، كحادثةِ الإفكِ، وقصةِ المطالبةِ بالنفقةِ، وقصة ماريةَ وتحريمِ النبيِّ ﷺ لها.

وسنذكرُ بعضَ هذه الحوادثِ، وننظرُ كيفَ تعامل النبيُّ ﷺ معها.

أما قصةُ الإفكِ: فهي تلك المحنةُ العظيمةُ التي عرضتَ لأمِّ المؤمنينَ رَضِيَاللَّهُعَنْهَا، وحدثَ فيها من البلاءِ ما حدثَ، حتى برّأها الله من فوق سبعِ سماواتٍ.

تروي أمُّ المؤمنين عائشة هذه القصة لنا، فتقول: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ أنْ يخرجَ سفراً أقرعَ بينَ نسائهِ، فأيّتهنَّ خرجَ سهمها خرجَ بها رسولُ الله ﷺ معهُ، فأقرعَ بيننا في غزوةٍ

---

(١) فتح الباري [٥/ ٢٠٨].

غزاها، فخرجَ فيها سهمي، فخرجتُ معَ رسولِ الله ﷺ، وذلكَ بعدَ ما أنزلَ الحجابُ، فأنا أحملُ في هودجي، وأنزلُ فيهِ مسيرنا، حتّى إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ منْ غزوهِ، وقفلَ، ودنونا منَ المدينةِ؛ آذنَ ليلةً بالرّحيلِ، فقمتُ حينَ آذنوا بالرّحيلِ، فمشيتُ حتّى جاوزتُ الجيشَ، فلـمّا قضيتُ منْ شأني أقبلتُ إلى الرّحلِ، فلمستُ صدري، فإذا عقدي منْ جزعِ ظفارِ قدِ انقطعَ، فرجعتُ فالتمستُ عقدي، فحبسني ابتغاؤهُ[1]، وأقبلَ الرّهطُ الّذينَ كانوا يرحلونَ لي، فحملوا هودجي، فرحلوهُ على بعيريَ الّذي كنتُ أركبُ، وهمْ يحسبونَ أنّي فيهِ، قالتْ: وكانتْ النّساءُ إذْ ذاكَ خفافاً لمْ يهبّلنَ[2]، ولمْ يغشهنَّ اللّحمُ، إنّما يأكلنَ العلقةَ منَ الطّعام، فلمْ يستنكرِ القومُ ثقلَ الهودجِ حينَ رحلوهُ ورفعوهُ، وكنتُ جاريةً حديثةَ السّنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا، ووجدتُ عقدي بعدَ ما استمرَّ الجيشُ، فجئتُ منازلهمْ، وليسَ بها داعٍ ولا مجيبٌ، فتيمّمتُ منزلي الّذي كنتُ فيهِ، وظننتُ أنَّ القومَ سيفقدوني، فيرجعونَ إليَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني، فنمتُ، وكانَ صفوانُ بنُ المعطّلِ السّلميُّ قدْ عرّسَ منْ وراءِ الجيشِ فادّلجَ[3]، فأصبحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني، فعرفني حينَ رآني، وقدْ كانَ يراني قبلَ أنْ يضربَ الحجابُ عليَّ، فاستيقظتُ باسترجاعهِ حينَ عرفني، فخمّرتُ وجهي بجلبابي، ووالله ما يكلّمني كلمةً، ولا سمعتُ منهُ كلمةً غيرَ استرجاعهِ، حتّى أناخَ راحلتهُ، فوطئَ على يدها، فركبتها، فانطلقَ يقودُ بيَ الرّاحلةَ حتّى أتينا الجيشَ، بعدَ ما نزلوا موغرينَ في نحرِ الظّهيرةِ، فهلكَ منْ هلكَ في شأني، وكانَ الّذي تولّى كبرهُ عبدُ الله بنُ أبيٍّ ابنُ سلولَ، فقدمنا المدينةَ، فاشتكيتُ حينَ قدمنا المدينةَ شهراً، والنّاسُ يفيضونَ في قولِ أهلِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ منْ ذلكَ، وهوَ يريبني في وجعي أنّي لا أعرفُ منْ رسولِ الله ﷺ اللّطفَ الّذي كنتُ أرى منهُ حينَ أشتكي، إنّما يدخلُ رسولُ الله ﷺ فيسلّمُ، ثمَّ يقولُ: «**كيفَ تيكمْ؟**»، فذاكَ يريبني، ولا أشعرُ بالشّرِّ، حتّى خرجتُ بعدَ ما نقهتُ، وخرجتْ معي أمُّ مسطحٍ، قبلَ المناصعِ[4]، فعثرتْ أمُّ مسطحٍ في مرطها، فقالتْ: تعسَ مسطحٌ، فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ،

---

(١) «الجزع»: هوَ خرز يمانٍي، و«ظفار»: قرية في اليمن.

(٢) «لمْ يهبّلنَ» أيْ لمْ يثقلنَ باللّحمِ والشّحم.

(٣) «التّعريس»: النّزول آخر اللّيلِ في السّفر لنومٍ أوْ استراحة، «ادّلجَ»: أي مشى آخر الليل بعد أن نزل للاستراحة.

(٤) هيَ مواضع خارج المدينة كانوا يتبرّزونَ فيها.

أتسبّينَ رجلاً قدْ شهدَ بدراً، قالتْ: أيْ: هنتاهْ، أوْ لمْ تسمعي ما قالَ، قلتُ: وماذا قالَ؟ قالتْ: فأخبرتني بقولِ أهلِ الإفكِ، فازددتُ مرضاً إلى مرضي، فلمّا رجعتُ إلى بيتي، فدخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فسلّمَ، ثمَّ قالَ: «**كيفَ تيكمْ؟**»، قلتُ: أتأذنُ لي أنْ آتيَ أبويَّ، قالتْ: وأنا حينئذٍ أريدُ أنْ أتيقّنَ الخبرَ منْ قبلهما، فأذنَ لي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أبويَّ، فقلتُ لأمّي: يا أمّتاهْ، ما يتحدّثُ النّاسُ؟ فقالتْ: يا بنيّةُ، هوّني عليكِ، فوالله لقلّما كانتِ امرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عندَ رجلٍ يحبّها، ولها ضرائرُ إلّا كثّرنَ عليها، قالتْ: قلتُ: سبحانَ الله، وقدْ تحدّثَ النّاسُ بهذا؟! فبكيتُ تلكَ اللّيلةَ حتّى أصبحتُ لا يرقأُ[1] لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثمَّ أصبحتُ أبكي، ودعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، وأسامةَ بنَ زيدٍ حينَ استلبثَ الوحيُ يستشيرهما في فراقِ أهلهِ، قالتْ: فأمّا أسامةُ بنُ زيدٍ فأشارَ على رسولِ الله ﷺ بالّذي يعلمُ منْ براءةِ أهلهِ، وبالّذي يعلمُ في نفسهِ لهمْ منَ الودِّ، فقالَ: يا رسولَ الله همْ أهلكَ، ولا نعلمُ إلّا خيراً، وأمّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقالَ: لمْ يضيّقِ اللهُ عليكَ، والنّساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تصدقكَ[2]، قالتْ: فدعا رسولُ الله ﷺ بريرةَ، فقالَ: «**أيْ بريرةُ، هل رأيتِ منْ شيءٍ يريبكِ منْ عائشةَ؟**»، قالتْ لهُ بريرةُ: والّذي بعثكَ بالحقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمراً قطُّ أغمصهُ[3]عليها أكثرَ منْ أنّها جاريةٌ حديثةُ السّنِّ، تنامُ عنْ عجينِ أهلها، فتأتي الدّاجنُ فتأكلهُ[4]، قالتْ عائشةُ: وكانَ رسولُ الله ﷺ سألَ زينبَ بنتَ جحشٍ زوجَ النّبيِّ ﷺ عنْ أمري ما علمتِ أوْ ما رأيتِ، قالتْ: يا رسولَ الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلّا خيراً، قالتْ عائشةُ: وهيَ الّتي كانتْ تساميني منْ أزواجِ النّبيِّ ﷺ، فعصمها اللهُ بالورعِ، فقامَ رسولُ الله ﷺ على المنبرِ، فاستعذرَ منْ عبدِ الله بنِ أبيٍّ ابنِ سلولَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ وهوَ على المنبرِ: «**يا معشرَ المسلمينَ، منْ يعذرني[5] منْ رجلٍ قدْ بلغَ أذاهُ في أهلِ بيتي؟ فوالله**

---

(١) أي: لا ينقطع.

(٢) هذا الّذي قالهُ عليّ إنما هو بناء على ما رآه من انزعاج النّبيّ ﷺ بهذا الأمر وتقلّقهُ، فأرادَ راحة خاطره، وكانَ ذلكَ أهمَّ منْ غيره.

(٣) أيْ: أعيبه.

(٤) هي الشّاة الّتي تألف البيت، ولا تخرج للمرعى، ومعنى هذا الكلام: أنّهُ ليسَ فيها شيء ممّا تسألونَ عنهُ أصلاً، ولا فيها شيء منْ غيره إلّا نومها عنْ العجين.

(٥) أي: منْ يقوم بعذري إنْ كافأته على قبيح فعاله ولا يلومني، وقيلَ: معناهُ منْ ينصرني، والعذير النّاصر.

ما علمتُ على أهلي إلّا خيراً، ولقدْ ذكروا رجلاً ما علمتُ عليهِ إلّا خيراً، وما كانَ يدخلُ على أهلي إلّا معي». فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ، فقالَ: أنا أعذركَ منهُ يا رسولَ الله، إنْ كانَ منَ الأوسِ ضربنا عنقهُ، وإنْ كانَ منْ إخواننا الخزرجِ أمرتنا ففعلنا أمركَ. فتنازع عند ذلك الأوسُ والخزرجُ فيما بينهم، فلمْ يزل رسولُ الله ﷺ يخفّضهمْ حتّى سكتوا وسكتَ. قالتْ عائشة: وبكيتُ يومي ذلكَ لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثمَّ بكيتُ ليلتي المقبلةَ لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، وأبوايَ يظنّانِ أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي. فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي، استأذنتْ عليَّ امرأةٌ منَ الأنصارِ، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي. قالتْ: فبينا نحنُ على ذلكَ دخلَ علينا رسولُ الله ﷺ فسلّمَ ثمَّ جلسَ، قالتْ: ولمْ يجلسْ عندي منذُ قيلَ لي ما قيلَ، وقدْ لبثَ شهراً لا يوحى إليهِ في شأني بشيءٍ. قالتْ: فتشهّدَ رسولُ الله ﷺ حينَ جلسَ، ثمَّ قالَ: «**أمّا بعدُ يا عائشةُ، فإنّهُ قدْ بلغني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرّئكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ؛ فاستغفري اللهَ وتوبي إليهِ؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبٍ، ثمَّ تابَ تابَ اللهُ عليهِ**». قالتْ: فلمّا قضى رسولُ الله ﷺ مقالتهُ، قلصَ دمعي حتّى ما أحسُّ منهُ قطرةً. فقلتُ لأبي: أجبْ عنّي رسولَ الله ﷺ فيما قالَ. فقالَ: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ. فقلتُ لأمّي: أجيبي عنّي رسولَ الله ﷺ. فقالتْ: والله ما أدري ما أقولُ لرسولِ الله ﷺ. فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السّنِّ لا أقرأُ كثيراً منَ القرآنِ: إنّي والله، لقدْ عرفتُ أنّكمْ قدْ سمعتمْ بهذا حتّى استقرَّ في نفوسكمْ وصدّقتمْ بهِ، فإنْ قلتُ لكمْ إنّي بريئةٌ -واللهُ يعلمُ أنّي بريئةٌ-؛ لا تصدّقوني بذلكَ، ولئنِ اعترفتُ لكمْ بأمرٍ -واللهُ يعلمُ أنّي بريئةٌ-؛ لتصدّقونني، وإنّي والله ما أجدُ لي ولكمْ مثلاً إلّا كما قالَ أبو يوسفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. قالتْ: ثمَّ تحوّلتُ، فاضطجعتُ على فراشي. قالتْ: وأنا والله حينئذٍ أعلمُ أنّي بريئةٌ، وأنَّ اللهَ مبرّئي ببراءتي، ولكنْ والله ما كنتُ أظنُّ أنْ ينزلَ في شأني وحيٌ يتلى، ولشأني كانَ أحقرَ في نفسي منْ أنْ يتكلّمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيَّ بأمرٍ يتلى، ولكنّي كنتُ أرجو أنْ يرى رسولُ الله ﷺ في النّومِ رؤيا يبرّئني اللهُ بها. قالتْ: فوالله ما رامَ رسولُ الله ﷺ مجلسهُ[1]، ولا خرجَ منْ أهلِ البيتِ أحدٌ حتّى أنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على نبيّهِ ﷺ، فأخذهُ ما كانَ

(١) أيْ: ما فارقهُ

يأخذهُ منَ البرحاءِ[١] عندَ الوحيِ، حتّى إنّهُ ليتحدّرُ منهُ مثلُ الجمانِ منَ العرقِ[٢] في اليومِ الشّاتِ منْ ثقلِ القولِ الّذي أنزلَ عليهِ. قالتْ: فلمّا سرّيَ عنْ رسولِ الله ﷺ وهوَ يضحكُ، فكانَ أوّلَ كلمةٍ تكلّمَ بها أنْ قالَ: أبشري يا عائشةُ، أمّا اللهُ فقدْ برّأكِ. فقالتْ لي أمّي: قومي إليهِ[٣]. فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليهِ، ولا أحمدُ إلاّ اللهَ هوَ الّذي أنزلَ براءتي[٤]. قالتْ: فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ...﴾ [النور: ١١-٢٠] عشرَ آياتٍ، فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هؤلاءِ الآياتِ براءتي[٥].

في حديث الإفك فوائدُ عدّةٌ في منهجه ﷺ في التعامل مع زوجته منها:

١. أسلوبُ التروّي:

إن النبي ﷺ اتّخذَ أسلوبَ التروّي والتثبّتِ والتحقّقِ من هذه الشائعةِ قبلَ إصدارِ أيِّ حكم فيها، فتروّى ﷺ، ولم يتعجل؛ ليكون قراره في ذلك عادلاً.

فقد مضى على حادثةِ الإفكِ شهرٌ كاملٌ، وهو لم يفاتح عائشةَ في الموضوعِ، بل يتروّى، ويسألُ، ويتحقّقُ من الأمرِ.

٢. تغيير المعاملة:

ومما يؤخذُ من هذه القصة أيضاً: أن النبي ﷺ قد غيّر أسلوبه في التعامل مع زوجته، فلم يعد يجلسْ عندها، ولم تعدْ ترى منه اللطفَ الذي كانت تراه منه قبل ذلك في حالة المرض.

---

(١) أي: الشّدّة

(٢) الجمان: الدّرّ، شبّهتْ قطرات عرقه ﷺ بحبّاتِ اللّؤلؤ في الصّفاء والحسن.

(٣) أي قومي فاحمديهِ، وقبّلي رأسه، واشكريهِ لنعمةِ الله تعالى الّتي بشرّك.

(٤) قالتْ عائشة ما قالتْ إدلالًا عليهِ وعتباً

(٥) رواه البخاري [٢٦٦١]، ومسلم [٢٧٧٠].

تقول عائشة: «ويريبني في وجعي: أنّي لا أعرفُ منْ رسولِ الله ﷺ اللّطفَ الّذي كنتُ أرى منهُ حينَ أشتكي».

وهذا الموقف من النبي ﷺ يدلُّ على حكمة بليغة في تعامله مع الحادث، فهو لم يعتزلها اعتزالاً كلّياً؛ لأن الاعتزالَ يكون عقوبةً على مخالفةٍ أو معصيةٍ، ولم يثبتْ في حقها شيءٌ حتى الآنَ تستحقُّ عليه العقوبة، بل كان يتفقّدُ أحوالها، ويسأل عنها بقوله: «**كيفَ تيكمْ؟**».

وهو بالمقابل لم يعاملها بالطريقةِ التي كان يعاملها بها قبل شيوعِ حادثِ الإفك؛ ليشعرها بأن شيئاً قد حدث، ويحتاج إلى تحقيقٍ؛ لمعرفة الحقيقةِ.

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه من الفوائد: ملاطفة الزّوجة وحسنُ معاشرتها، والتّقصير منْ ذلكَ عندَ إشاعة ما يقتضي النّقص وإنْ لمْ يتحقّق، وفائدة ذلكَ أنْ تتفطّنَ لتغييرِ الحال؛ فتعتذر أوْ تعترف»[1].

قال النووي: «واعلمْ أنَّ في حديث الإفك فوائد كثيرة [فذكر منها]: أنّهُ إذا عرضَ عارض بأنْ سمعَ عنها شيئاً، أوْ نحو ذلكَ يقلّل منَ اللّطف ونحوه؛ لتفطن هيَ أنَّ ذلكَ لعارضٍ، فتسأل عنْ سببه فتزيلهُ»[2].

٣. جمع الآراء والاستشارة:

أخذَ رسولُ الله ﷺ يتحرّى حول هذه الشائعةِ، ويسألُ بسرّيّةٍ تامّةٍ عن أخلاقِ عائشةَ، وسلوكها، وهل رئيَ منها شيءٌ؟ فسأل أسامةَ بنَ زيدٍ، وعليَّ بن أبي طالبٍ، وخادمتها بريرةَ، وزينبَ.

واختيارُ الرسول ﷺ هؤلاءَ الأربعةَ؛ لاستشارتهم لم يكن عن عبث: فعليٌّ بن أبي طالب قريبٌ له ومن داخل الأسرة، وأسامةُ من المقرّبين من الأسرة النبوية المحافظين على السّرّية التامّةِ.

---

(١) فتح الباري [٢/ ٤٧٩].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٧/ ١١٧].

قال ابن حجر: «والعلّة في اختصاص عليّ وأسامة بالمشاورةِ أنَّ عليّاً كانَ عندهُ كالولدِ؛ لأنّهُ ربّاهُ منْ حال صغره ثمَّ لمْ يفارقهُ، بل وازدادَ اتّصاله بتزويجِ فاطمة فلذلكَ كانَ مخصوصاً بالمشاورةِ فيما يتعلّق بأهلهِ لمزيدِ اطّلاعه على أحواله أكثر منْ غيره؛ وكانَ أهل مشورته فيما يتعلّق بالأمورِ العامّة أكابر الصّحابة كأبي بكر وعمر.

وأمّا أسامة فهوَ كعليٍّ في طول الملازمة، ومزيد الاختصاص والمحبّة؛ ولذلكَ كانوا يطلقونَ عليهِ أنّهُ حبُّ رسول الله ﷺ؛ وخصّهُ دونَ أبيهِ وأمّه؛ لكونهِ كانَ شابّاً كعليٍّ، وإنْ كانَ عليّ أسنَّ منهُ. وذلكَ أنَّ للشّابِّ منْ صفاء الذّهن ما ليسَ لغيرهِ، ولأنّهُ أكثرُ جرأة على الجواب بما يظهرُ لهُ منَ المسنِّ، لأنَّ المسنَّ غالباً يحسبُ العاقبةَ، فربّما أخفى بعض ما يظهرُ لهُ؛ رعايةً للقائلِ تارةً والمسئول عنهُ أخرى»[1].

واختار من النساء اثنتين:

الأولى: من داخل الأسرة النبوية، وهي زوجته ابنةُ عمّته.

والثانية: الجاريةُ؛ لكونها قريبةً منها، ومطّلعة على أمورها وشئونها.

ولا شكَّ أن هذا الاختيارَ يدلُّ على حكمةِ النبيِّ ﷺ، وكمال فطنته في تعامله مع القضايا التي تمسُّ الأعراضَ.

وبعد أن أجرى النبيُّ ﷺ هذا التحقيقَ السّريَّ الهادئَ أشار إلى النتائجِ، فصعد على المنبرِ، وبيّنَ أن الذي يقفُ وراءَ هذهِ الفتنةِ هو رأسُ المنافقينَ عبدُ الله بنُ أبيٍّ، فقال: «**يا معشرَ المسلمينَ، منْ يعذرني منْ رجلٍ قدْ بلغَ أذاهُ في أهلِ بيتي، فوالله ما علمتُ على أهلي إلّا خيراً، ولقدْ ذكروا رجلاً ما علمتُ عليهِ إلّا خيراً، وما كانَ يدخلُ على أهلي إلّا معي**».

وفي هذا دفاعه عن زوجته أمامَ الناس على المنبر: «**فوالله ما علمتُ على أهلي إلّا خيراً**».

ومع توصّل النبيِّ ﷺ إلى براءةِ عائشةَ إلا أنه بقيَ ينتظرُ نزولَ الوحيِ؛ ليكون قراره قاطعاً.

---

(١) فتح الباري [٨/ ٤٦٩].

وفي تأخّر نزولِ الوحيِ حكمٌ بالغةٌ من أهمّها أن الله أراد أن يعلّمُ الأمةَ من خلالِ هذه الحادثةِ كيفَ يتعاملونَ مع مثلِ هذه الحوادثِ الحسّاسةِ حفاظاً على الأسرةِ المسلمةِ من التصدّعِ.

٤. ثم بعد ذلك استخدمَ طريقةَ المواجهةِ مع عائشةَ رضي الله عنها:

فصارحها في الموضوع بكل شفافيةٍ ووضوحٍ؛ من أجلِ الوصولِ إلى حلٍّ لهذه المشكلةِ، ولتنكشفَ الحقائقُ، وتطيبَ النفوسُ.

فقال لعائشةَ رضي الله عنها بأسلوب النّصحِ والوعظِ: «**يا عائشةُ، فإنّهُ بلغني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً؛ فسيبرّئكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ؛ فاستغفري اللهَ، وتوبي إليهِ؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبهِ، ثمَّ تابَ تابَ اللهُ عليهِ**».

٥. وبعد ظهور براءتها احتملَ ما قد يصدر منها على سبيل الغضب:

وذلك في قولها: «**فقالتْ لي أمّي: قومي إلى رسولِ الله ﷺ. فقلتُ: لا والله لا أقومُ إليهِ، ولا أحمدُ إلّا الله**».

قال النووي: «براءة عائشة رضيَ الله عنها منَ الإفك هيَ براءة قطعيّة بنصِّ القرآن العزيز، فلوْ تشكّكَ فيها إنسان - والعياذ بالله - صارَ كافراً مرتدّاً بإجماعِ»[1].

ومن الحوادث والمشكلات التي تعرّض لها بيت النبوة ما حصل من نسائه من المطالبة بزيادة النفقة:

وهذه القصةُ تبيّنُ كيفَ كانَ تعامل النبيُّ ﷺ مع المشكلاتِ الاقتصاديّةِ التي تنشأ داخلَ الأسرة بسبب المطالبة بزيادة النفقاتِ.

يروي هذه القصةَ جابر بن عبد الله فيقولُ: دخلَ أبو بكرٍ يستأذنُ على رسولِ الله ﷺ، فوجدَ النّاسَ جلوساً ببابهِ لمْ يؤذنْ لأحدٍ منهمْ.

فأذنَ لأبي بكرٍ فدخلَ، ثمَّ أقبلَ عمرُ، فاستأذنَ، فأذنَ لهُ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [١٧/ ١١٧].

فوجدَ النّبيَّ ﷺ جالساً حولهُ نساؤهُ واجماً ساكتاً.

فقالَ: لأقولنَّ شيئاً أضحكُ النّبيَّ ﷺ.

فقالَ: يا رسولَ الله، لوْ رأيتَ بنتَ خارجةَ، سألتني النّفقةَ، فقمتُ إليها، فوجأتُ عنقها.

فضحكَ رسولُ الله ﷺ، وقالَ: «**هنَّ حولي كما ترى يسألنني النّفقةَ**».

فقامَ أبو بكرٍ إلى عائشةَ يجأُ عنقها، وقامَ عمرُ إلى حفصةَ يجأُ عنقها، كلاهما يقولُ: تسألنَ رسولَ الله ﷺ ما ليسَ عندهُ.

فنهاهما رسولُ الله ﷺ.

فقلنَ: والله لا نسألُ رسولَ الله ﷺ شيئاً أبداً ليسَ عندهُ.

ثمَّ نزلتْ عليهِ هذهِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

فبدأَ بعائشةَ فقالَ: «**يا عائشةُ إنّي أريدُ أنْ أعرضَ عليكِ أمراً أحبُّ أنْ لا تعجلي فيهِ حتّى تستشيري أبويكِ**».

قالتْ: وما هوَ يا رسولَ الله، فتلا عليها الآيةَ.

قالتْ: أفيكَ يا رسولَ الله أستشيرُ أبويَّ؟! بل أختارُ اللهَ ورسولهُ والدّارَ الآخرة، وأسألكَ أنْ لا تخبرَ امرأةً منْ نسائكَ بالّذي قلتُ.

قالَ: «**لا تسألني امرأةٌ منهنَّ إلّا أخبرتها، إنَّ اللهَ لمْ يبعثني معنّتاً ولا متعنّتاً، ولكنْ بعثني معلّماً ميسّراً**».

ثمَّ خيّرَ نساءهُ فقلنَ مثلَ ما قالتْ عائشةُ [١].

في هذه القصة بيانُ كيفيةِ تعامل النبي ﷺ مع مطالبة زوجاته بزيادةِ النفقةِ، في بدايةِ

(١) رواه مسلم [١٤٧٨].

الأمرِ بقي رسولُ الله ساكتاً صامتاً، لم يجبهنَّ بشيءٍ، كما قال جابر: «فوجدَ النّبيَّ ﷺ جالساً حولهُ نساؤهُ واجماً ساكتاً».

هذا هو الأسلوبُ الأولُ الذي اتّخذه النبيُّ ﷺ لحلِّ هذه المشكلةِ، وهو أسلوبُ التغاضي عن الأمرِ؛ وذلك لأن كثيراً من الخلافاتِ الزوجيّةِ لا تحلُّ بأسلوبِ الخصومةِ، ولا ينفعُ معها الجدلُ، بل قد يزيدها الجدلُ تعقيداً.

والأمر الثاني الذي اتخذه النبيُّ ﷺ لحل هذه المشكلة هو: التخييرُ، فخيّرَ نساءه بين البقاءِ معه على الحالِ التي هو عليها أو مفارقتهنَّ، وهذا مما جاءتْ به الشريعةُ الإسلاميةُ أن يخيّر الزوجُ زوجته بين البقاءِ عنده، أو مفارقته إذا طالبته بأمورٍ لا يستطيعُ الوفاءَ بها.

إن أسلوبَ التخييرِ الذي استعمله النبيُّ ﷺ في معالجةِ تلكَ المشكلةِ الماديّةِ هو صورةٌ مشرقةٌ من صورِ مبدأ الشورى في الحياةِ الزوجيّةِ.

وأمرَ رسولُ الله ﷺ أزواجه بالتروّي، وعدم الاستعجالِ باتّخاذِ القرارِ:

«إنّي ذاكرٌ لكِ أمراً فلا عليكِ أنْ لا تستعجلي».

وهذا بخلافِ ما عليه كثيرٌ من الأزواجِ من التهديدِ بالطلاقِ باستمرارٍ، فعندَ حدوثِ أيِّ خطأ من الزوجةِ يقولُ: سأطلّقكِ، سأطلّقكِ، إذا قصّرتْ معه في شيءٍ قال: سأطلّقكِ، إذا خرجتِ من البيتِ فأنتِ طالقٌ، إذا رفعتِ السماعةَ فأنتِ طالقٌ، إذا كلّمتِ فلانة فأنتِ طالقٌ.

ومما يؤخذُ من هذه القصّةِ أن النبيَّ ﷺ لم يلجأ إلى ضربِ زوجاته أو إهانتهنّ، وإنما اتّخذَ معهنَّ أسلوباً كريماً.

ولمّا قامَ أبو بكر وعمرُ؛ ليضربا عائشةَ وحفصةَ نهاهما عن ذلك؛ لأن المشاكلَ لا تحلُّ دائماً بالضربِ، بل بالحوارِ والإقناعِ في الغالب.

ومن الأمور التي ينبغي أن تراعيها الزوجةُ:

أنها تنتقل أحياناً من بيت غنًى، وتدليلٍ، وترفيهٍ إلى بيتِ زوجها الذي قد يكونُ قليلَ

ذاتِ اليدِ، قد يكونُ طالباً، أو موظّفاً مستوراً، فيجبُ على الزوجةِ أن تراعيَ الفارقَ، وهذا قدرُ الله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فكونُ البنتِ كانتَ عندَ أهلها مدلّلةً، وأن أباها كان يشتري لها كلَّ يومٍ، وأنّهُ وأنّهُ، لا يعني أنها الآنَ إذا انتقلتْ إلى بيتِ زوجها ترهقهُ شططاً.

والمطالبةُ بزيادةِ النفقاتِ، والإكثارُ من الطلباتِ أمرٌ محرجٌ جدّاً للزوج لاسيما إذا كانَ فقيراً، وقد تدفعُ الزوجَ الذي عنده ضعفٌ في الإيمانِ إلى الطّرقِ المحرّمةِ في الكسبِ؛ فيضرُّ بنفسه وأسرته عن طريقِ السعيِ وراءَ الكسبِ المحرّمِ كالرّشوةِ، والسرقةِ، وغير ذلك، فيعرّضُ نفسهُ للفصلِ من العملِ، أو السّجنِ، فيخسرُ دينهُ ودنياهُ.

وفي المقابلِ ينبغي على الزوجِ أن يقدّرَ أن المرأةَ كانتْ في بيتِ نعمةٍ، فكل ما يستطيع أن يأتي به إليها من الأشياءِ المباحةِ شرعاً؛ فليوفّرهُ لها.

ومن المشاكلِ التي حصلتْ في بيت النبوّةِ ما حصل من الاتفاق بين بعض زوجاته؛ للاحتيال عليه:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: كانَ رسولُ الله ﷺ يحبُّ الحلواءَ والعسلَ، فكانَ إذا صلّى العصرَ؛ دارَ على نسائهِ فيدنو منهنَّ.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يشربُ عسلاً عندَ زينبَ بنتِ جحشٍ، ويمكثُ عندها.

فقلتُ: أما والله لنحتالنَّ لهُ.

فتواصيتُ أنا وحفصةُ على أيّتنا دخلَ عليها؛ فلتقل لهُ: أكلتَ مغافيرَ[1]، إنيّ أجدُ منكَ ريحَ مغافيرَ.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يشتدُّ عليهِ أنْ يوجدَ منهُ الرّيحُ.

فدخلَ على إحداهما، فقالتْ لهُ ذلكَ، قالَ: «**لا، ولكنّي كنتُ أشربُ عسلاً عندَ زينبَ بنتِ جحش، فلنْ أعودَ لهُ، وقدْ حلفتُ، لا تخبري بذلكَ أحداً**».

(١) وهوَ صمغ حلو لهُ رائحة كريهة ينضحهُ شجر يقال لهُ: العرفط

فنزلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ١-٥][1].

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: أنّهما تعاونتا حتّى حرّمَ رسول الله ﷺ على نفسه ما حرّمَ.

وقد اتخذ النبي مع نسائه أسلوبَ الهجرِ، فبعدَ حادثةِ المطالبة بالنفقة وقصةِ العسل، اعتزل النبي نساءه شهراً.

قال ابنُ حجرٍ: «يحتمل أنْ يكون مجموع هذهِ الأشياءِ كانَ سبباً لاعتزالهنَّ. وهذا هوَ اللّائق بمكارمِ أخلاقه ﷺ، وسعة صدره وكثرة صفحه، وأنَّ ذلكَ لمْ يقع منهُ حتّى تكرّرَ موجبه منهنَّ، صلى الله عليه وسلم ورضيَ عنهنَّ».

فعنْ عبدِ الله بنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سأل عمر بن الخطاب فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ منِ المرأتانِ منْ أزواجِ النّبيِّ ﷺ اللّتانِ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

فقالَ: وا عجبي لكَ يا ابنَ عبّاسٍ، عائشةُ وحفصةُ.

ثمَّ استقبلَ عمرُ الحديثَ يسوقهُ.

فقال: كنّا معشرَ قريشٍ قوماً نغلبُ النّساءَ، فلمّا قدمنا المدينةَ وجدنا قوماً تغلبهمْ نساؤهمْ، فطفقَ نساؤنا يتعلّمنَ منْ نسائهمْ.

قالَ: وكانَ منزلي في بني أميّةَ بنِ زيدٍ بالعوالي، فتغضّبتُ يوماً على امرأتي، فإذا هيَ تراجعني، فأنكرتُ أنْ تراجعني. [أيْ: ترادّني في القول وتناظرني فيهِ].

---

(١) رواه البخاري [٦٩٧٢]، ومسلم [١٤٧٤].

فقالـتْ: ما تنكـرُ أنْ أراجعكَ، فـوالله إنَّ أزواجَ النّبيِّ ﷺ ليراجعنـهُ، وتهجرهُ إحداهنَّ اليومَ إلى اللّيلِ. [فيهِ: أنَّ النّبيّ ﷺ أخذَ بسيرةِ الأنصار في نسائهمْ وترك سيرة قومه].

فانطلقتُ، فدخلتُ على حفصةَ، فقلتُ: أتراجعينَ رسولَ الله ﷺ.

فقالتْ: نعمْ.

فقلتُ: أتهجرهُ إحداكنَّ اليومَ إلى اللّيلِ.

قالتْ: نعمْ.

قلـتُ: قدْ خـابَ منْ فعـلَ ذلكَ منكنَّ وخـسرَ، أفتأمـنُ إحداكنَّ أنْ يغضـبَ اللهُ عليها لغضبِ رسولهِ ﷺ، فإذا هيَ قدْ هلكتْ؟

لا تراجعي رسـولَ الله ﷺ، ولا تسأليهِ شيئاً، وسـليني ما بدا لكِ، ولا يغرّنّكِ أنْ كانتْ جارتكِ هيَ أوسمَ، وأحبَّ إلى رسولِ الله ﷺ منكِ، يريدُ عائشةَ.

قـالَ: وكانَ لي جـارٌ منَ الأنصـارِ فكنّا نتناوبُ النّـزولَ إلى رسـولِ الله ﷺ، فينزلُ يوماً، وأنـزلُ يومـاً، فيأتيني بخبرِ الوحـيِ وغيرهِ، وآتيهِ بمثلِ ذلكَ، وكنّا نتحدّثُ أنَّ غسّـانَ تنعلُ الخيلَ لتغزونا.

فنـزلَ صاحبي، ثمَّ أتاني عشـاءً، فضربَ بابي ثمَّ ناداني، فخرجـتُ إليهِ فقالَ: حدثَ أمرٌ عظيمٌ.

قلتُ: ماذا؟! أجاءتْ غسّانُ؟

قالَ: لا، بل أعظمُ منْ ذلكَ وأطولُ، طلّقَ النّبيُّ ﷺ نساءهُ.

فقلتُ: قدْ خابتْ حفصةُ وخسرتْ، قدْ كنتُ أظنُّ هذا كائناً.

حتّى إذا صلّيتُ الصّبحَ شددتُ عليَّ ثيابي، ثمَّ نزلتُ، فدخلتُ على حفصةَ وهيَ تبكي.

فقلتُ: أطلّقكنَّ رسولُ الله ﷺ؟

فقالتْ: لا أدري، ها هوَ ذا معتزلٌ في هذهِ المشربةِ.

فأتيتُ غلاماً لهُ أسودَ فقلتُ: استأذنْ لعمرَ.

فدخلَ ثمَّ خرجَ إليَّ فقالَ: قدْ ذكرتكَ لهُ فصمتَ.

فانطلقتُ حتّى انتهيتُ إلى المنبرِ، فجلستُ، فإذا عندهُ رهطٌ جلوسٌ يبكي بعضهمْ، فجلستُ قليلاً ثمَّ غلبني ما أجدُ.

ثمَّ أتيتُ الغلامَ فقلتُ: استأذنْ لعمرَ.

فدخلَ، ثمَّ خرجَ إليَّ، فقالَ: قدْ ذكرتكَ لهُ، فصمتَ.

فولّيتُ مدبراً، فإذا الغلامُ يدعوني، فقالَ: ادخل؛ فقدْ أذنَ لكَ.

فدخلتُ، فسلّمتُ على رسولِ الله ﷺ، فإذا هوَ متّكئٌ على رملِ حصيرٍ [1]، قدْ أثّرَ في جنبهِ، متّكئٌ على وسادةٍ منْ أدمٍ حشوها ليفٌ.

فسلّمتُ عليهِ، ثمَّ قلتُ وأنا قائمٌ: طلّقتَ نساءكَ؟

فرفعَ رأسهُ إليَّ وقالَ: «لا».

فقلتُ: اللهُ أكبرُ.

ثمَّ قلتُ وأنا قائمٌ أستأنسُ [2]: لوْ رأيتنا يا رسولَ الله وكنّا معشَر قريشٍ قوماً نغلبُ النّساءَ، فلمّا قدمنا المدينةَ؛ وجدنا قوماً تغلبهمْ نساؤهمْ، فطفقَ نساؤنا يتعلّمنَ منْ نسائهمْ، فتغضّبتُ على امرأتي يوماً، فإذا هيَ تراجعني، فأنكرتُ أنْ تراجعني.

فقالتْ: ما تنكرُ أنْ أراجعكَ فوالله إنَّ أزواجَ النّبيِّ ﷺ ليراجعنهُ، وتهجرهُ إحداهنَّ اليومَ إلى اللّيلِ.

فقلتُ: قدْ خابَ منْ فعلَ ذلكِ منهنَّ وخسرَ، أفتأمنُ إحداهنَّ أنْ يغضبَ اللهُ عليها لغضبِ رسولهِ ﷺ؛ فإذا هيَ قدْ هلكتْ؟

---

(١) أي: حصير منسوج بالسّعف.

(٢) أي: أقول قولا أستكشف به: هل ينبسط لي أم لا؟

فتبسّمَ رسولُ الله ﷺ.

ثـمَّ قلـتُ: لـوْ رأيتني، ودخلتُ عـلى حفصةَ، فقلـتُ: لا يغرّنّكِ أنْ كانـتْ جارتكِ هيَ أوضأَ منكِ، وأحبَّ إلى النّبيِّ ﷺ منكِ.

فتبسّمَ أخرى.

فجلستُ حينَ رأيتهُ تبسّمَ.

فقلتُ: أستأنسُ يا رسولَ الله.

قالَ: «**نعمْ**».

فلمْ أزل أحدّثهُ حتّى تحسّرَ الغضبُ عنْ وجهه، وحتّى كشّرَ فضحكَ، وكانَ منْ أحسـن النّاس ثغراً ﷺ.

فجلستُ، فرفعتُ رأسي في البيتِ، فوالله ما رأيتُ فيهِ شيئاً يردُّ البصرَ إلّا أهباً [١] ثلاثةً.

فقلتُ: ادعُ اللهَ يا رسـولَ الله أنْ يوسّـعَ على أمّتكَ فقدْ وسّعَ على فارسَ والرّومِ، وهمْ لا يعبدونَ اللهَ.

فاستوى جالساً ثمَّ قالَ: «**أفي شكٍّ أنتَ يا ابنَ الخطّابِ؟ أولئكَ قومٌ عجّلتْ لهمْ طيّباتهمْ في الحياةِ الدّنيا**».

فقلتُ: استغفرْ لي يا رسولَ الله.

وكانَ أقسمَ أنْ لا يدخلَ عليهنَّ شهراً منْ شدّةِ موجدتهِ عليهنَّ حتّى عاتبهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ [٢].

وعـن أنـسِ بـن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: آلى رسـولُ الله ﷺ منْ نسـائهِ، فأقامَ في مشربةٍ تسـعاً وعشرينَ ليلةً، ثمَّ نزلَ.

فقالوا: يا رسولَ الله آليتَ شهراً.

---

(١) جمع إهاب، وهوَ الجلد قبل الدّباغ

(٢) رواه البخاري [٢٤٦٨]، ومسلم [١٤٧٩].

فقالَ: «**إنَّ الشّهرَ يكونُ تسعاً وعشرينَ**»(١).

«**آلى**» **قال النووي**: «ومعناهُ: حلفَ لا يدخل عليهنَّ شهراً، وليسَ هوَ منَ الإيلاء المعروف في اصطلاح الفقهاء، ولا لهُ حكمه.

وأصل الإيلاء في اللّغة: الحلف على الشّيء، وصارَ في عرف الفقهاء مختصّاً بالحلفِ على الامتناع منْ وطء الزّوجة»(٢).

ومن الدروسِ المستفادةِ من قصةِ اعتزالِ النبيِّ ﷺ نساءهُ: أن أسلوبَ الهجرِ من أساليبِ معالجةِ المشكلاتِ الزوجيّة.

فقد استعملَ رسولُ الله ﷺ هذا الأسلوبَ حيثُ أقسمَ أنْ لا يدخلَ عليهنَّ شهراً منْ شدّةِ موجدتهِ عليهنَّ.

والهجرُ عقوبةٌ نفسيّةٌ بالغةٌ، وهو منْ أبلغِ العقوباتِ للزوجةِ، والهجرُ إما أن يكونَ في المضجعِ وهو أشدُّ، وإما أن يكونَ خارجَ البيتِ، ومن رحمةِ النبيِّ ﷺ بأزواجه أنه هجرهنَّ خارجَ البيتِ.

من فوائد الحديث:

فيه: دخولُ الآباءِ على البناتِ ولوْ كانَ بغيرِ إذن الزّوجِ، والتّنقيبُ عنْ أحوالهنَّ لا سيّما ما يتعلّقُ بالمتزوّجاتِ.

وفيهِ: تأديبُ الرّجلِ ابنتهُ وقرابتهُ بالقولِ؛ لأجلِ إصلاحها لزوجها.

وفيهِ: الصّبرُ على الزّوجاتِ، والإغضاءُ عنْ خطابهنَّ، والصّفحُ عمّا يقع منهنَّ منْ زلل في حقِّ المرء دون ما يكون منْ حقّ الله تعالى.

وفيهِ: أنَّ شدّةَ الوطأة على النّساء مذمومٌ؛ لأنَّ النّبيَّ ﷺ أخذَ بسيرةِ الأنصار في نسائهمْ، وترك سيرة قومه.

---

(١) رواه البخاري [١٩١١].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٠/ ٨٨].

وفيهِ: مشروعيّة الاستئذان على الإنسان وإنْ كانَ وحده؛ لاحتمالِ أنْ يكون على حالة يكره الاطّلاع عليها.

وفيهِ: أنَّ المرءَ إذا رأى صاحبه مهموماً استحبَّ لهُ أنْ يحدّثهُ بما يزيلُ همّهُ، ويطيّبُ نفسهُ، لقولِ عمر: «لأقولنّ شيئاً يضحكُ النّبيّ ﷺ»[1].

(١) فتح الباري [٩/ ٢٩١].